سلسلة زلزال العقول

(1)

زلـــزال العقـــول

تأليف

م/ وائـــل عـــــادل

مراجعة

المستشار/ عادل عبد الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

حقوق هذه المادة محفوظة لأكاديمية التغيير. ولا يجوز طباعتها للنشر إلا بعد موافقة أكاديمية التغيير، ولا مانع من نشرها على مواقع الإنترنت شريطة ذكر المصدر.

AOC MindQuake

All rights reserved. It may be reproduced
with permission of the Academy of Change.

The authors have asserted their right under the
Copyright, Design and Patents Act 1988,
to be identified as the Authors of this work.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

British Library Cataloguing in Publication Data.
A Catalogue record for this title is available from
the British Library.

ISBN 1-4276-1312-5

Distributed on line by
www.aoc.fm

للتواصل مع أكاديمية التغيير (AOC)

بريد إلكتروني: info@taghier.org

www.aoc.fm

المحتويات

مقدمة 5
زلزال العقول 7
فوضى المعرفة 9
اركب... وبعدين نشوف 12
جووووول 15
المفتاح مش هيفتح 18
لا تعبر الشارع وحدك 21
حرف الباء ... وفن المناورة 24
بلطجية الفكر 27
الفيلم مش حقيقي 30
طلعت الأول زمان 33
البلياردو 35
الصورة مقطوعة 38
صراع الأحلام 41
نظارة القائد 44
الطريق طويـــــــــــــــــــل 47
إلى الواقفين في الطابور 50
إستراتيجيـــــة التحلـــــيق 52
عسكـــــــــري المـــــرور 54
انتبه إنه فوق عينيك 57
أهلاً بالمجـــــانين 60
الخاتمة 63

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعد الاعتناء بتطوير منهجيات التفكير من صميم عمل أكاديمية التغيير، لأن أي تحول يحدث على أرض الواقع يسبقه تحول في فكر القائم على صناعة التحول، فنحن عندما نعمل للتأسيس لمستقبل جديد، إنما نؤسس له وفق معطيات وتصورات في عقولنا، فإن كانت هذه التصورات إيجابية وناضجة وفعالة، انعكست على الواقع بعمل حي يرتقي بالمجتمعات وينميها، وإن كانت هذه التصورات مشوهة أو مضطربة، انعكست في ممارسات مذبذبة ومضطربة. لذلك فإن ثورة العقول هي بداية التغيير.

وتأتي سلسلة "زلزال العقول" لتسهم في إحداث هذا التغيير، وإشعال هذه الثورة داخل العقل، لتطلق أقصى طاقاته لينتزع المستقبل من فم المستحيل، إن ثورة العقول هي التي تمنح الإنسان بريق الفكرة، وبها تتقدم الأمم وتنهض المجتمعات.

كتاب زلزال العقول

ويأتي كتاب "زلزال العقول" كأول حلقات هذه السلسلة، ويعالج بالأساس منهجيات التفكير، ويسلط الضوء على زوايا دقيقة من نمط التفكير الحي الذي ينقل المجتمعات نقلات نوعية، كما يعتبر هذا الكتيب زلزالاً لأنه يرج العقل رجاً، ويعيد ترتيب الأفكار فيه بشكل جديد، فيهذب أفكاراً، ويضيف أفكاراً، ويجتث أحياناً بعض الأفكار التي لا يصلح بها عقل تغييري.

ويحتوي الكتاب على عشرين فكرة تركز على العقل وأنماط التفكير، وقد صيغت بأسلوب سهل وشيق، وبلغة خفيفة عميقة، وكان الحرص ألا يكون حجم الكتيب كبيراً، حتى يسهل تداوله

ويتسنى استصحابه في أي مكان.

وتمت معالجة الأفكار عبر مواقف حياتية، حتى لا تنتهي علاقة القاريء بالأفكار بانتهاء القراءة، لأنه سيتذكر هذه المواقف كلما تعرض لموقف مشابه، ومن ثم سيستدعي الفكرة المرتبطة بالموقف بسهولة.

ونشكر كل من ساهم في إنجاز هذا العمل، ونخص بالشكر هنا فريق الجزيرة توك الذي رعى هذه المقالات، وكان أول ناشر لها في موقعه "الجزيرة توك".

ونسأل الله أن ينفع بهذا الجهد، ليسهم في تنمية العقل العربي، ودعم منهجيات تفكيره الصالحة، ومعالجة منهجيات التفكير التي تحول دون التحول الحضاري.

قسم الدراسات والأبحاث

أكاديمية التغيير

زلزال العقول

الزلزال قادم لا محالة

عندما ننظر إلى خارطة العالم، ونرى القارات مستقرة لتشكل جزيرة عالمية تحيط بها المياه من كل جانب؛ ندرك عظم الدور الذي تتطلبه التحولات الكبرى. فالأرض لم تكن مجزأة بهذا الشكل، ودار حوار وتفاوض مستمر بين اليابسة والماء، ولولا الهزات والرجات والتصدعات لظلت الأرض كتلة واحدة، ولما رأينا مغازلة المياه لليابسة، وتوطنها كحاجز فاصل بين القارات لترسم لنا لوحة رائعة لمشهد القارات الست متربعة على عرش الماء. هذا المشهد الذي نَحَتته الزلازل عبر العصور.

وتحتاج التحولات الحضارية بدورها إلى زلازل تعيد تشكيل وجه الإنسانية، لترسم عليه أرقى الألوان وأبهجها، وتمنحه قسمات الأمل والإصرار.

وكما تمتلك الدول التي تعاني من زلازل متكررة – كاليابان- مراصد للتنبؤ بحدوث الزلزال، لتحذر الناس أن "الزلزال قادم لا محالة"؛ فإن علماء الاجتماع يتنبئون بأن **زلزال العقول حتمي الحدوث**، وأنه قادم لا محالة، حينما تزداد الضغوط على الأمم، وتتعاظم التحديات المفروضة عليها. وتعجز منظومتها الفكرية عن إبداع تصور للحل، حينها تتصدع الأفكار السائدة وتنهار.

وتأتي الزلازل الفكرية لتعيد تشكيل العقل من جديد، فيتغير تعريف الممكن والمستحيل، وتراجع المسلمات وأنماط التفكير السابقة التي تولدت في ظلها تلك التحديات، هذه الزلازل هي التي تجدد حيوية العقل، وتعيد فرز الأفكار، وتُبدع المَخرج من الأوضاع التي تبدو قاهرة، بعد أن أعلنت الحرب على الأفكار المستقرة في العقل.

ولابد للعقل من زلزال بين الحين والآخر، لأن استقرار الأفكار فيه فترة طويلة لا يدل بالضرورة على النضج؛ بل قد يعني الجمود على ما أَلِفه، لذلك يجب أن يرتج بين

الحين والآخر رجات قوية يعيد من خلالها فرز أفكاره ومراجعة مسلماته، ولا عجب إن أبقى على بعض الأفكار التي يصلح بها العقل، وشذب البعض الآخر وطوره، واجتث مجموعة أخرى من الأفكار بلا رجعة، تلك الأفكار التي تعيق الحراك الجاد نحو التحول.

إنه زلزال حقيقي، يضمن حيوية العقل، ويبدو مؤكد الحدوث مع عجز نمط التفكير السابق عن إيجاد حلول وبدائل تفل التحديات، في الوقت الذي يتطلع الناس فيه إلى مخرج.

وإذا تأملنا حياة المصلحين والمفكرين والقادة الذي أحدثوا تحولات تاريخية؛ لوجدنا أنهم زلزلوا العقول، إما بالتعرض للمعتقدات السابقة بالنقد، أو مقاومة المسلمات الخاطئة مثل توهم أن الأرض مسطحة، أو تغيير أنماط التفكير والنظر إلى شكل المجتمع الأفضل، أو طرح أطروحات جديدة جذابة تخاطب أشواق الجماهير، أو القيام بمبادرات ميدانية تؤكد القدرة على إحداث التحولات. لقد اتخذوا من عقول الجماهير هدفاً، وصاغوا من القول والفعل أدوات لإحداث الرجات، إنهم مهندسو "تسونامي" العقول الجارف، الذي يغير قناعات الجماهير، لتنتقل من الشعور بالعجز إلى الإيمان بإمكانية الفعل، وتسرع إلى مغادرة مقعد المتفرج لتنتقل إلى مقعد الفاعل.

إننا إذا أردنا تغيير وجه خارطة الفعل السياسي والاجتماعي، فلا نبالغ إذ نقول، أنه **لابد من زلزلة العقول**. وسيكون لتلك الزلزلة دوياً شديداً، لأنها لا تسعى لعقد صفقة أو تسوية مع الأفكار البالية، فهي زلزلة تصنع واقعاً جديداً، فلا يرهبنك أن تصدعاتها تبتلع الأفكار الجامدة وهي تفر مذعورة. لأن هذه الأفكار هي نفسها التي ابتلعت أحلامنا يوماً ما، وصادرت قدراتنا المذهلة على التخيل وإبداع الحلول.

فوضى المعرفة

أستطيع أن أرى عقلك من الداخل من خلال سلوكك

فتحت الحاسب (الكمبيوتر) هذا الصباح... كنت أبحث عن ملف في غاية الأهمية... وجدت ملفات كثيرة (Files) لم توضع في مكان يجمعها (Folder)، كانت متناثرة... ...مختلطة... تتهكم وتقسم أن تحيرني... تتوعدني بأن يعلو ضغط الدم عندي... تتحداني أنني سألجأ إلى كوب من الشاي متوهماً أنه طوق النجاة.... وبالفعل ....هرعتُ لأعد كوب الشاي.. قبل أن أعيد خوض صراع البحث عن الملف!!

بدأ البخار يتصاعد حتى أوشك أن يداعب جبهتي.. حينها فكرت.. ما ضرني لو كنت خصصت حافظة (Folder) لكل موضوع أضع فيها كل الملفات المتعلقة به؟! لماذا لم أخصص حافظة (Folder) للأدب، وأخرى للسياسة، وثالثة للأخبار ورابعة للفن... وخامسة .. وسادسة..

فجأة.. راعني سؤال تطفل إلى عقلي... ترى!! ...هل المعلومات في عقلك مرتبة أم أنها متناثرة بهذا الشكل المخيف؟؟ وإذا كانت بهذا الشكل!! فكيف أتخذ قراراتي في حياتي وهي مبنية على استدعاء سريع لهذه المعلومات من العقل؟؟!

أصابني الذهول... وأحاطت بي الحيرة، نعم.. **كثيراً ما بذلت جهداً في استدعاء معلومة أعرفها وسمعتها من قبل، لكن عقلي لا يسعفني،** وكم من مرة وجدتني عاجزاً عن التعبير عن شيء أعرفه، وكم من قرار أعياني إطلاق سراحه من حيز الفكر إلى الواقع وشعرت بألم من التفكير!! وكم من ... وكم من ...معقول؟!!.. هل ما يراود عقلي الآن صحيحاً؟؟!!...لا... هذا أمر لا يمكن تخيله...

يبدو أن العقل مليء بالملفات (Files) التي تحتاج إلى حافظات (Folders) تجمعها، ليسهل استدعاء المعلومة، ويسهل حفظ المعلومات الواردة من الخارج في أماكنها الصحيحة، ومن ثم استخدامها. والإنسان يحتاج أن ينظم خارطته المعرفية، هذه الخارطة التي ينتج عنها

– في النهاية – السلوك البشري، وكلنا نتصرف وفق مدخلات معينة تدخل عقلولنا، تصف لنا الواقـع والذات والآخر، فإذا كانت المدخلات خاطئة سينشأ سلوك خاطيء، وإذا كانت مدخلات صحيحة وغـير مرتبة تضطرب الخارطة المعرفية وتتشـابك المعلومـات ويسـاء تفسـيرها، ونشـهد هـذا الاضـطراب في السلوك في واقعنا، ويتجلى بوضوح هذا التشويش في خلل في الفعل السياسي والاجتماعي والتحـرك في فراغ استراتيجي وأزمة في اتخاذ القرار، ونلمسه كذلك في شكل تعثر في الحركة على بساط النهضة ومزاحمة الأمم مقاعد الصدارة.

إننا نستطيع أن نقول إن شكل حركة وطبيعة سلوك الإنسان، هـو تطـابق لطبيعـة المعلومـات وشكل ترتيبها في عقله. وبحسب النتوءات في هذه الخارطة – سواء في المضمون أو الترتيب – ستكون النتوءات في السلوك. لذلك أيضاً بإمكاني أن أزعم أنني أستطيع أن أرى عقلك من الداخل من خـلال سلوكك.

وبينما أنا شارد في هذه الأفكار؛ إذا بي أجدني وقد غطى البخار جبهتي، لكنه كشف لـي طرفـاً من عجائب العقـل، عـدت إلى حاسـبي الحبيـب، وتأملـت ملفاتـه المتنـاثرة، وبـدأت أصـنع الحافظـات (Folders)، وأرتب ملفاتي... الآن صار استدعاء المعلومة أسـهل، وبالمثـل حفـظ المعلومـات الجديـدة وأرشفتها.

طرق باب الغرفة، فإذا بصديق لـي يـأتيني ومعـه حاسـوبه الخـاص، سـألني أن أشـاركه في أحـد المشاريع...

قلت له: ما هدف المشروع؟

قال: أن نشتري وحدة تصوير.

قلت له: لا.. لا أسألك عن الوسيلة.. أسألك عن هدف المشروع..

قال: أن نشتري وحدة كاملة مع نظام صوتي..

قلت له: لا.. هذا أيضاً ليس الهدف.. أنت لا تجيبني على سؤالي... أسألك عن الهدف.. كأن تقول لي "نحن نريد أن نفوز في مسابقة الجزيرة لأفضل لقطة، ووسيلتنا لذلك شـراء وحـدة كاملـة لنضـمن جودة عالية.."

قال:...

قلت:...

قال:...

قلت:...

قال:...

قلت:...

قال:...

قلت: لا ..هذا أيضاً ليس الهدف..أنت لم تجبني على سؤالي... أسألك عن الهدف..

ثم قلت له: افتح حاسبك...أرني إياه..

فرأيت الملفات متناثرة في كل مكان..!!!!

اركب... وبعدين نشوف

عندما تكون ثقافة الميكروباصات هي القائدة

اررركب... اركب ... اركب....

هذا هو الهتاف الذي انطلق من حنجرة سائق الميكروباص.... كان الوقت حاراً.... طال الانتظار... فقررتُ أن أستجيب للنداء...

سألتُ السائق: هل ستذهب إلى "دريم لاند"؟

أجابني: قل باسم الله ... "اركب وبعدين نشوف".

فسميت الله ...

ثم ركبت .... وحمدت الله.. فلم يكن الميكروباص مزدحماً...

انطلق السائق يشق الشوارع، وبدأ الناس يخرجون من الشقوق ليركبوا معه... اكتمل عدد الركاب، واستمر شحن الميكروباص بالبشر... **سألت السائق أن يكتفي بعدد قليل من الواقفين لأن الطريق طويل،** فنظر إليَّ في مرآته الأمامية نظرة ازدراء، بعد أن عانقت شفته العليا أنفه. بدأت الأعداد تتزايد.... أصبح حذائي هو الممر المفضل للركاب.. وجوههم تتدلى عليَّ في مشهد عجيب ... تحليتُ بالصبر الجميل... بدأتُ أنزف عرقاً... يتشاجر البعض نتيجة التكدس... يرتفع السباب... يبكى الطفل الرضيع... وبدأت رحلة الأحلام تسوق إليَّ نبأ احتضارها...

سألت السائق: إلى أين تقودنا؟؟

قال: هذه السيارة ركبت كشفاتها الجديدة بالأمس، كما زودتها بمحرك فائق السرعة، وطلاؤها لم يمر عليه أسبوع، وهي أسرع سيارة موجودة في....

قاطعته: نعم.. وهذا ما جذبني لركوبها ...ولكن **إلى أين ستذهب بهذا المخزون البشري؟!** ولماذا تسمح بركوب المزيد؟! **رائع جداً أن ننطلق بأقصى سرعة، ولكن.. إلى أين؟؟!!**

رد مغضباً: سآخذكم إلى وسط البلد... ومن هناك يستطيع كل فرد أن يركب ما يريد، ويذهب إلى حيث يشاء.

نزلت هذه العبارات كالصاعقة على الجميع... صرخ الركاب في السائق... هذا يقول ألن تذهب إلى كذا؟ وذاك يصيح ألن توصلني إلى كذا؟؟ وآخر يشيح بذراعيه مظهراً سخطه، ليستقر كوعه في النهاية في فمي... كان كل راكب يريد أن يذهب إلى وجهة مختلفة تماماً عن الآخر، ولسوء حظه كان الكثيرون عائدين بالفعل لتوهم من وسط البلد.

أخذتُ حصتي من الاستفسار متسائلاً –بعد أن لفظت كوع هذا المتحمس: إذن.. لن تأخذني إلى "دريم لاند"؟؟؟!!!

فتمتم في برود بذكره الذي رتله مع كل سائل سبقني: (لا طبعاً.. ألم أقل لك "اركب وبعدين نشوف"؟؟!!).

طلبت منه التوقف ... نزلت من الميكروباص... والتفتُّ إليه وهو يواصل صناعة الشقوق في الشوارع... **سمعته من بعيد يصطاد ضحاياه من المارة المساكين بندائه الفتان**... اررركب... اركب... اركب... قلتُ في نفسي: "ما أكثر هذا النمط من القيادة... الذي يتبع فلسفة "اركب وبعدين نشوف"!!! نراه على مستويات شتى من الفعل القيادي في أماكن كثيرة وأزمان مختلفة. أسلوب واحد، وإن اختلف نوع السيارة. نراه حين تسوق بعض الحكومات شعوبها نحو اللاوجهة. وعندما تتكدس أحزاب وحركات بأعداد لا تعرف كيف ستصل لأهدافها أو لعلها لم تتفق على هدف، ويتكرر نفس المشهد في عدد من المؤسسات والمشاريع، لتكون المحصلة ظهور نفس الأعراض، المعاناة من صراخ

الرضيع بعد فترة، وتفجر المشاحنات كاستجابة طبيعية للتخمة البشرية، ثم تنشغل القيادة بإطفاء الحرائق بدلاً من إشعال الهمم. إنها أعراض طبيعية عندما تكون **ثقافة الميكروباصات هي السائدة..والقائدة**... وتصير السياسة المعلنة... **"اركب وبعدين نشوف"**...

إن الأمر الذي ميز معظم قادة الأمم التي نهضت أنهم يعرفون ماذا يريدون، وكيف سيصلون إلى ما يريدون. كانوا رماة يتقنون تحديد الهدف...رسامين... يجيدون رسم الطرق، ونحاتين... يتقنون نحت الأمل في النفوس اليائسة... الأمر الذي تَغَنَّى به نابليون ...**"القائد هو بائع الأمل"**...

العجيب أن بقية الركاب لم ينزلوا رغم احتجاجهم الواسع... وآثروا الركوب ... لمجرد الركوب.... أو لعلهم ارتضوا أن يذهبوا إلى حيث يعرف السائق... لا إلى حيث يريدون!!

ونصيحتي لكل راكب

"قبل أن يركب... يشوف"

ولا يستسلم ذهنياً لفكرة

"اركب.. وبعدين نشوف".

جووووول

إذا حددنا الثلاث خشبات..يوشك أن تهتز الشباك

كنتُ أدون بعض الملاحظات حول أسباب نهوض الأمم... أتحدث مع كتبي ودراساتي.. وأسأل عظماء التاريخ عن أحلام صاغوها واقعاً... أطللتُ من النافذة لأختلس شيئاً من الراحة... تعجبت!! الشوارع مجدبة من المارة..!! تذكرتُ.. فثمة مبارة كرة قدم احتشد لها الناس. وبينما أنا مستغرق في القراءة والتدوين؛ إذا بصرخة ترج المدينة... "جووول"... كان صوتاً مدوياً أعلنته الجماهير في الاستاد، والمشاهدون في البيوت والمقاهي والنوادي وفي كل مكان، هتاف واحد.... في وقت واحد... وكلمة واحدة... "جووول".

تعجبتُ لهذا السلوك الجمعي المنضبط الذي لم يتخلف عنه أحد... وتساءلتُ عن سر الإجماع، ووحدة الهتاف!! كثيراً ما تجاهلتُ مباريات كرة القدم، لكن هذا الاتحاد المعلن بشكل صريح... أسرني، فانضممت للمشاهدين عبر شاشات التلفزة..

شاهدتُ إعادة الهدف... اهتزت الشبكة طرباً... وأطلق الجمهور صيحته، ليبدأ عقلي يطلق كامن الأفكار....

الفكرة الأولى: إن كلمة "Goal" التي صرخ بها الجمهور تعني الهدف، أي أن الناس كانت تجمع على أن هناك هدفاً تحقق، كما أن هناك إجماعاً على تحديد الفريق الذي حقق الهدف لصالحه.

الفكرة الثانية: هذا الهدف محدد جداً فإطاره "الثلاث خشبات"، وإذا لامست الكرة الخشبة وارتدت فلا خلاف على عدم تسجيل الهدف، والقضية لا تحتاج إلى إقناع.

الفكرة الثالثة: إذا ارتجت الشبكة بعد اختراق الكرة لها، فإن الهدف هنا محقق لا شك فيه.

الفكرة الرابعة: الهدف يعترف به الفريق المسدِّد والخصم والجمهور، ولا يتشكك فيه أحد، اللهم إلا في الحالات التي يتم فيها مخالفة القواعد، أو تكون الكرة على خط المرمى، فيُشك في كونها حققت هدفاً أم لا.

الفكرة الخامسة ... السادسة... السابعة .... أفكار كثيرة تدفقت ليجري قلمي على بساط ملعب التدوين. وجدت في لعبة كرة القدم عجباً، **فليس بالضرورة أن من بذل جهداً أكبر هو الذي سيفوز**، ولا يوجد ضمان بحتمية انتصار من دافع عن مرماه بجسارة.. لكنه قد لا يُهزم، وليس من صوَّب كرات كثيرة لابد أن ينال تصفيق الجمهور، بل قد يصب عليه وابل اللعنات إن كان معظمها يتجاوز الثلاث خشبات، **فالجماهير لا تجامل، ولا تمنح صرختها إلا لهدف واضح**. إن الفريق الذي سيفوز بالجمهور هو من استطاع تحديد الثلاث خشبات، ثم تمكن من التسديد السليم، ليجبر المشاهدين على الصراخ "جووول".... إما صرخة نصر المؤيدين، أو صرخة انكسار مؤيدي الفريق المنافس.

فكرتُ.... هل تمتلك أمتنا أهدافاً محددة؟؟ حكومات وأحزاب ومؤسسات وأصحاب مشاريع؟؟ هل هناك إجماع على تحديد الثلاث خشبات، وفي أي جزء من الملعب تكون، **أم أننا أحياناً نصوب في مرمانا؟!** هل حُددت معايير الفوز أم صار أي تحرك يعتبر إنجازاً؟!.. وهل تدخل كراتنا إلى المرمى بشكل لا يدع مجالاً للشك أم أنها تطيش أحياناً، وفي حالات أخرى تعتاد الوقوف على خط المرمى ليصبح الهدف بين القيل والقال... وعرضة للطعن والشك؟!

يبذل عشاق التحول الحضاري الجهد الكبير، لكنهم في النهاية قد يضعون الكرة على خط المرمى، ليدور جدل حول مدى قربها أو بعدها من تحقيق أهدافها، فتعزف الجماهير عن التشجيع، ويفتر الحماس، **لأن الناس لا تشجع إلا الفرق الناجحة، التي تحسن هز الشباك بقوة.**

وجدتُ أن محاولة استبدال الثلاث خشبات بأشياء أخرى لجذب المشجعين أمر عديم الفائدة، فاستعراض المهارات في الملعب يسعد الجمهور، لكنه لا يخدعه، لأن السؤال الأساسي بعد انتهاء المباراة "من الفائز؟؟"

إن الدور الأول لقادة التغيير والنهضة – في كل مجال وعلى جميع المستويات– هو تعريف الهدف بدقة، ورسم حدوده بوضوح، حتى يمكن تقييم الممارسات المبذولة للوصول إليه، وإذا حدث ذلك يوشك في يوم ما أن نسمع هذا الإجماع... "جووول" ...**حتى من خصومنا.**

المفتاح مش هيفتح

إنني أدعو إلى استراتيجية الاقتحام

"المفتاح مش هيفتح" ....هذا ما قلته لجدي وأنا أستصحبه إلى بيته بعد أن تم تجديده، كنتُ على يقين أن المفتاح لن يفتح...

أخرج مفتاحه من جيبه... فقلت له: "المفتاح مش هيفتح".

بحث في جيبه عن آخر... قلت له بنبرة الواثق: "المفتاح مش هيفتح".

قال بعفوية: كنت أفتح به دائماً... فهمست في أذنه: "المفتاح مش هيفتح".

نادى ابنه، وسأله نسخة من المفتاح.. فأجاب الابن: "المفتاح مش هيفتح".

كلم ابنته عبر الهاتف المحمول... راجياً أن يجد عندها نسخة من المفتاح.. فأجابت: "المفتاح مش هيفتح" .. طلب من ابن أخي الصغير – الذي لم يتجاوز السبع سنوات– أن يسأل جدته عن مكان المفتاح.. فرد الطفل متعجباً: "جدو.. المفتاح مش هيفتح"!!

أصيب الجد بحالة من الذهول الممزوج باليأس... قائلاً: هل غيرتم المفتاح؟؟!!... أجبت مبتسماً: "المفتاح مش هيفتح".

أدخلت يدي في جيبي... أخرجت "الريموت كنترول"... ضغطت على الزر... ففتح الباب.

أخذت بيدي جدي إلى الداخل، ونفسي تحدثني: **"إنني أحب جدي... لكنني لن أستخدم مفتاحه..."**.

علينا – كشباب– ونحن في مطلع القرن الجديد أن نقدر أجدادنا من سياسيين ومفكرين وخبراء، ونستفيد من خبراتهم وتجاربهم، دون أن نتواكل عليهم، ظناً منا أن بأيديهم مفاتيح الخلاص. **فلو كانت معهم لفتحوا الأبواب الموصدة من عقود**، لقد بحثوا، وإن كانوا لم يجدوا

المفتاح في عصرهم؛ ففي الغالب لن يجدوه في عصر غيرهم. إننا في قرن جديد، تعقدت فيه التحديات، ويتطلب التصدي لها أدوات جديدة وعقولاً وأساليب تفكير مختلفة... ومستحيل أن تتحكم في مصيرنا عقول قرن مضى، لأن العقليات السابقة ستنتج نفس الحلول، **ولا يمكن أن يقود أحلامنا أناس أنهكتهم التجربة.** ولا نعاتبهم.. فحسبهم أنهم جربوا..

إن الشباب هم من يُتوقع أن يكون لديهم حل لغز العصر، عليهم أن يتبوءوا مقاعدهم، ويوقنوا أنهم الأقدر على صناعة تجربة جديدة، آن لهم أن يُسمعوا العالم صوتهم، فتجثو البشرية تواضعاً لأفكارهم، وتُطرق الرأس إنصاتاً لبيانهم، مصغية إلى هذا الصوت العنيد، وذلك النبض الفريد. أهتف من أعماق الفؤاد... لا تنتظروا وصاية، ولا تستصغروا أنفسكم، بل اصرخوا ملء أفواهكم.. "سنصنع التاريخ"..

إنني أدعو الآن إلى استراتيجية الاقتحام، أن نقتحم -نحن الشباب- مجالات الإعلام، والفكر، وصناعة الاستراتيجيات، وإطلاق المبادرات، وقيادة الأحزاب والمشاريع، ولا نتقيد بأسلوب تفكير أو طريقة عرض أو كتابة أو تأسيس أعلام القرن السابق، سنصوغ أطروحات فكرية مختلفة شكلاً ومضموناً، ونمطاً إعلامياً فريداً، وممارسة قيادية رائدة، ولن يكون ذلك إلا بإيمان عميق بأننا قادة هذه اللحظة التاريخية، سنحدد مفرداتها، ونجدد مصطلحاتها، ونطور أساليب التعاطي مع الواقع، وسنعلن الثورة على كثير من مسلمات الماضي الخاطئة التي تقيدنا، لأننا ببساطة سنعبر عن جيلنا وأحلامنا، وما سيُعتبر اليوم خروجاً عن المألوف، سيصير طبيعياً بعد سنوات، بل ومتخلفاً بعد عقود، لن نرث الثارات التي أشعلها حراك أجدادنا، وقد نختلف معهم في نظرتهم للآخر، لكننا سنُشَيِّد على أفضل ما بنوا، لنؤسسس لحياة جديدة.. تطل على عالم جديد.. ويقودها جيل جديد. **يؤمن أنه بعد أن ينهي تجربته، ليس من حقه الوصاية على الجيل الذي يليه.**

وأخيراً... ووفاء لأجدادنا.. من سياسيين وإعلاميين ومفكرين وغيرهم... نقول لهم: إننا نقدركم ولن نستغني عن خبراتكم، ونعترف أن لكم جهوداً مشرفة يعتز بها الجيل، لكننا نستنكف القعود عن تسلم زمام القيادة، ونبرأ بأنفسنا عن إعادة إنتاج مفاتيح القرن العشرين، التي عجزت عن فتح كثير من أبوابه، وبالتأكيد لن تفتح أبواب المستقبل.. حيث تُفتح الأبواب ببصمة الصوت.

أقول لكل من سيحاول استخدام المفاتيح في هذا القرن

"المفتاح مش هيفتح"

لا تعبر الشارع وحدك

تشيخ الأمم عندما تصاب بشيخوخة الفعل

"لا تعبر الشارع وحدك"...كلمات حانية... كم سمعتها من جدي الممسك بيدي لنعبر الشارع.. حتى وأنا ابن الرابعة عشر، لم ينتبه أنني كبرت، وعليَّ أن أعبر بمفردي.. وجدتني أتردد بعد ذلك في عبور الشارع.. أطيل النظر للسيارات القادمة، لأنني اعتدت أن يقودني جدي الأطول قامة مني، والأقدر على رؤية السيارت، ثم اتخاذ القرار الجريء بالعبور... لأعبر متترساً به.

كنت أغبط زملائي الذين يعبرون وحدهم بجرأة، رغم أنهم قد يصغرونني سناً، لم يمسك أجدادهم بأيديهم، كانوا يرمقونهم من بعيد..

كان منطق جدي خوفه عليّ، وهدفه أن أعبر الشارع بسلام، ظننتُ حينها أن أجداد زملائي لا يخافون عليهم، ثم أدركتُ لاحقاً أن هدفهم كان **تعليم أحفادهم كيف يعبرون، وليس مجرد العبور**، كيف يتخذون القرار، وليس مجرد تلقي القرار للتنفيذ.

ما لم ينتبه له جدي أنني صرت أسرع منه، وتقديره لإمكانية العبور بالتأكيد يختلف عن تقديري، لأنه يقيس الإمكانية بسرعته وصحته هو. كان الأطفال يعبرون الشارع في رشاقة متنقلين بين السيارات، بينما أتحرك بسرعة شيخ وأنتظر حتى يفرغ الطريق من السيارات. وفي الوقت الذي لم يكن هؤلاء الأطفال يخشون العبور؛ كانت تتسارع دقات قلبي كلما أحكم جدي قبضته على يدي مع تدفق سيل السيارات، وأجده يتقدم خطوة ويرجع للخلف خطوة.

أدركت أنه عندما تسود ثقافة القيادة الأبوية، ووصاية الكبير على الصغير، تعجز كثير من الأمم عن عبور شوارع التحديات لتصل إلى ميادين الحضارة، لأنها تُبتلى بأجيال متواكلة ممسوخة، لا تبادر ولا تطرح حلاً، منتظرة قرار الشيوخ.

وتشيخ الأمم عندما تصاب بشيخوخة الفعل، وتفقد حسها بعامل الزمن، فيقوم ابن الثلاثين بالأفعال التي يُفترض أن يقوم بها ابن الثامنة عشر، ويتقلد من جاوز الخمسين زمام المواقع التي يجب أن تنبض فاعلية بابن الثلاثين. هذا الترحيل يؤدي إلى شيخوخة الأمة، شيخوخة على مستوى الأحلام والأهداف والاستراتيجيات، شيخوخة على مستوى الأداء، شيخوخة على مستوى صناعة الرموز في شتى المجالات. إنها حالة يمكن أن نطلق عليها **"تصابي الشيوخ، وطفولة الشباب"**، فالشيخ صار يقوم بعمل الشاب، والشاب يمسك بيد الشيخ متشبثاً بها خشية عبور الطريق، بحجة أن الشيخ أطول قامة وأقدر على رؤية السيارات القادمة من بعيد.

إن شيخوخة الفعل تعني أن يتأخر الشاب عن الفعل عقداً أو يزيد، أن يحمل الأب ابنه في الوقت الذي يتمكن فيه من المشي، وأن يمسك الجد بيد حفيده في الوقت الذي يستطيع أن يعبر الشارع بمفرده، وأن يعطي الجد قرار العبور في الوقت الذي يجب اكتفاؤه بتقديم الرأي. **وإذا طال الأمد بالأمم تفقد الحس بالشيخوخة**، فلا يطمح الشاب في ممارسة دور الشباب، بل يتمسك بقيام الشيخ بدوره، ويحرص أن يمسك بيده.

نحتاج إلى اختزال هذه الفجوة الزمنية في مساحات الفعل. وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، **ويتطلب هذا وعياً وجرأة**، وعياً من الشيوخ بأن دورهم استشاري يزود الشباب برصيد ضخم من الخبرات، ويرمق عملية العبور، ووعياً من الشباب بقدرته على العبور، مدركاً أن أجداده ليسوا بالضرورة أقدر على الرؤية منه، فحدة البصر قد تضعف مع مرور العمر، ورصيد التجربة بقدر ما له دور إيجابي يستفاد منه؛ بقدر ما يحمل تأثيراً سلبياً إن كان الجد تعرض من قبل لحادث مرور، فأُصيب بهاجس الخوف من العبور، مُوَرِّثاً إياه للشباب. ويتطلب الأمر جرأة في الفعل بعد هذا الوعي، جرأة من

الشيوخ في دفع الشباب لاتخاذ القرارات والمبادرات مع تقديم النصح والخبرة، وجرأة التجربة من الشباب، حتى يتمرس اتخاذ القرار ويبصر الطريق بوضوح.

إن الأمة ستستعيد فتوتها إذا أدركت مؤسساتها خطورة هذه الهوة، بداية من مؤسسة الحكم وانتهاءً بمؤسسة الأسرة، ثم قررت أن تستدرك، بإعطاء الصلاحيات للجيل الجديد الحالم، وتأسيس لجان استشارية من الشيوخ. وها نحن نرى بشارات تطلقها ثلة مغامرة من الشباب -في عدة أقطار- **تعشق الجلوس في عين العاصفة** لتثبت أن هذا زمانها. مُرَوِّضَة مجالات السياسة والإعلام والفن والإدارة وغيرها، مؤمنة بإمكانية الفعل، وعازمة على رسم مستقبل جديد، وتتجلى انتفاضتها في مشاريع شبابية، تحمل كلها رسالة واحدة مفادها... هذا زماننا.. وهذه هي لحظة العبور.. مؤمنين أن **تأجيل تحركهم يكرس الشيخوخة**، ويكرر المأساة بسلب الجيل الذي يليهم حقه، لقد أدركوا أن عصرهم يستنفرهم ليحلموا، ويكتبوا، ويتحدثوا عن آمالهم، ويحللوا ويطرحوا رؤاهم في عمليات التحول.. ثم يُنفذوا، إنهم أبناء المرحلة، وهم مهندسو مشروع التغيير الحضاري الذي يتمنونه... سحبوا أيديهم من قبضة أجدادهم بعد أن قبَّلوها قائلين.. **"بإمكاننا العبور"**.

حرف الباء ... وفن المناورة

إلى أي الحروف تنتمي؟؟

بينما أنا أقرأ في أحد الكتب، إذا بي أجدني أغيب عن عالم الكتاب، لأدخل عالم الأحرف التي صاغت كلماته، وجدتني أغوص في أعماقه، بدت الأحرف كمجموعة من الرسومات، نسيتُ الكتاب وموضوعه، لأجدني حائراً منبهراً بهذا العالم.. عالم الأحرف.

ففي عالم الأحرف تدور حوارات، وتحاك مؤامرات ومعارك وسجالات، وجدت الأحرف تتسابق فيما بينها، لتشكل الكلمات، فحروف "الفاء" و"القاف" و"الراء" قد تصنع "فقر"، لكنها إذا أَحسَنَتْ تشكيل نفسها تكون "رفق"، وجدت الفاعل والمفعول به، ورأيت حزناً مرسوماً على نقاط الكلمات التي قَدَّر لها الكاتب أن يجعلها مفعولاً به.

وهناك الأحرف الصغيرة الرشيقة القادرة على المناورة، ورغم أنها قررت أن تعمل صغيرة منفردة دون الاندماج مع أحرف أخرى لتكون كلمة كبيرة؛ إلا أن لديها من القوة ما يجعلها قادرة على أن تَجُر ما بعدها، كما يفعل حرف "الباء" منفرداً، ليكسر أعتى الكلمات، أو كما يتحالف حرفا "الفاء" و"الياء" ليشكلا قوة "في"، التي تناور وتخترق سدود الكلمات برشاقة باحثة عن هدفها في كلمة كبيرة، فتختار موقعها قبلها مباشرة، لتكسرها بدورها، فلا تُبقي ولا تذر، ثم تجرها عائدة بها إلى الأحرف الخائفة.

رأيت كذلك حرف "اللام" يتألق ذكاءً، حين قرر الانضمام إلى مجموعة حروف العلة، **ليفسر الأحداث، ويكشف علتها**، فيوضح المبهم، ويجلي الحقائق.

كذلك هالتني تلك الكلمات المستكينة، التي فضلت أن تكون تابعة، فيربطها ويعطفها على ما قبلها حرف "الواو"، ليجعلها تابعة لما سبقها، إن كان مجروراً جُرَّت، وإن كان مرفوعاً رُفعت، إن حرف"الواو" يمسخ ما يليه، وليس هذا جُرمه، **بل العتاب كل العتاب على من ارتضى أن يكون مكانه بعد "الواو".**

ازددت إعجاباً ب"أو" التي تتيح الخيارات، **وتعلمنا أنه لا يوجد خيار واحد، أو استراتيجية واحدة،** فاستيعاب العقل لـ "أو" يعني تحرره من أسر الحل الأوحد.

إن عالم الحروف يستحق النظر، فمن الأحرف تُنسج الكلمات، وتُصاغ الخطابات، ومن خلالها يعلن القادة قراراتهم المنطوقة أو المكتوبة، فبالحروف تشن الحروب، وبها توقف، فلا عجب أن تبدو في عالم علاقاتها مفردات الصراع.

وإن كان مقبولاً في دنيا الحروف أن يتواجد الفاعل والمفعول به، والجار والمجرور، وحرف العطف والمعطوف، ليتعايش كل هؤلاء كلوحة تشكيلية تنبض ببلاغة الكلمات وبيانها، فإن الحديث يختلف في دنيا الإنسان.

إن الحروف تعلمنا أن نكون في عالم الإنسان بين فاعلين أو مفعول بنا، أن نَجُر أو نُجَر، أن نحسن تشكيل أنفسنا، واستثمار مواردنا، أو أن نهدرها، أن نكتشف دور المجموعات والمشاريع الصغيرة في القيام بأعمال نوعية فعالة – مثلما تفعل الحروف النوعية كالجر والعلة، بدلاً من إعادة إنتاج أشكال القرن الماضي في مشاريع متضخمة، **قد لا يسعفها حجمها على السرعة والمرونة في المبادرة واتخاذ القرار.**

وليست كل الحروف قابلة للعيش منفردة، لتمارس دورها دون أن تلتحم مع غيرها من الأحرف مكونة كلمة، فحرف الـ"ثاء" لا يعمل منفرداً، والأبطال في الغالب قلة، والقادرون على التصدي منفردين صفوة، وتجسدهم تلك المجموعة من الحروف المتميزة التي تمتلك مهارت العمل النوعي.

أعجبتني حقاً تلك الحروف الصغيرة، وأسرتني دقتها ومهارتها، التي لولاها لاصطدمتْ الكلمات الكبيرة، ولتراشقتْ. إنها هي التي تُنظم، وتفسر، وتُفصِّل، وتفصل بين الكلمات، وتُعاقِب بالجر والكسر أحياناً، وهي صغيرة ليسهل على الكاتب تذكرها، ويسرع في كتابتها قبل ارتطام الكلمات، ويتمكن من حشرها بين أضخم المفردات.

إن الحروف الصغيرة هي صمام الأمان الذي يحول دون اختلال الجمل ومعانيها، وأعتقد أن **المشاريع الصغيرة بدورها صارت اليوم صمام أمان يثبت حيوية المجتمعات،** وإمكانيتها وقدرتها على الفعل. **يقولون أن السمك الكبير يأكل الصغير، وأقول بل الأسماك الصغيرة قادرة على اعتلاء ظهر الحوت.**

بلطجية الفكر

احترس... تسلل إلينا عقل

كنتُ أتابع تفاعل الأحداث السياسية في نشرة الأخبار، رأيت بعض "البلطجية" يتصدون لفض اعتصام، حيث يفضل بعض لاعبي السياسة استخدام القوة لقمع منافسيهم. وفي نفس التوقيت كنت أتصفح إحدى منتديات الإنترنت، وجدتُ مجموعة تسب مخالفيها، وأخرى تدعي احتكارها الصواب... التفَّتُ إلى التلفاز، فخُيِّل إليّ أن الصورة مكررة، وألوانها متقاربة، فعلى التلفاز "بلطجية السياسة" يريقون الدماء الحمراء، وعلى الإنترنت "بلطجية الفكر" يكتبون باللون الأحمر..

إن "ثقافة البلطجة" إفراز طبيعي لنمط تفكير يطغى في مجتمع من المجتمعات، حين لا توجد سوى وسيلة واحدة للحوار... **أن تسمعني**.. وهذا النمط يكرسه الأب في بيته، والمدرس في فصله، والمدير في مؤسسته... الخ، لذلك نجد بلطجية الفكر في كل مكان، في المؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية ..الخ، ويستخدمون أبشع الأسلحة المحرمة إنسانياً، ليغتالوا العقول، تارة برصاصة تتناول شخص طارح الفكرة ومكانته ومدى جدارته بالحديث، وأحياناً تخترق الرصاصة قلبه مفتشة عن نواياه، وحينها تطغى مناقشة هوية الأشخاص على تمحيص الأفكار، وتارة يحمل بلطجي الفكر في نفسه بقايا إنسان، فيكتفي بدبوس يشك به طارح الفكرة قبل أن يستكمل طرحها قائلاً له: **"ستبحث المستويات العليا هذه الفكرة... والآن.. لننتقل إلى النقطة التالية"**، أو آخر يتميز بالرقة فيهمس في أذن من بجواره: **"إنه يفكر كثيراً... سيتعبنا"**.. وأحياناً تستعد المؤسسات بكتيبة الردع الفكري للوقاية ممن أطلقتْ عليهم "مشاغبو الفكر"، فتسأل قبل أن تضم فرداً جديداً إلى فريقها: **"هل يفكر كثيراً؟؟"**.. أما كبار البلطجية فلا يكترثون بالأسلحة السابقة؛ بل يُطلقون قذائف فتاكة من عيونهم، تتجسد في نظرات

ازدراء أو توعد أو استنكار، لتقتل فكرة مطروحة قبل تمحيصها، بعد أن تكون شظايا القذائف أصابت طارحها بالشلل العقلي.

وهناك العرافون، الذين يعلمون شيئاً من الغيب، ويقرأون الفنجان، ترى أحدهم يقول لمحدثه قبل أن يشرح فكرته ويوضحها: **"لا تكمل ..أفهمك... أعرف ما الذي ستقوله"**..

ووأد الأفكار لا يقتصر على شريحة القيادة، فقد لاحظت وجود أفراد في بعض المؤسسات – ليسوا في مركز القيادة – ويروجون لنفس الأسلوب، خلتهم في بداية الأمر **"بلطجية تحت التمرين"**، لكنني وجدتهم يمارسون الإجهاض الفكري بجدية، ويتطوعون بالرد نيابة عن مديريهم بنفس الأسلوب، حينها علمت أنها ثقافة تُوَرَّث، وعبارات واحدة تُردد لإجهاض جنين الفكرة.. مثل: "هل جربها أحد من قبل؟؟"، "دعنا نعمل بالطريقة التي نعرفها"، "لو كانت صالحة لنفذتها الإدارة من فترة"، "لدينا إدارة واعية.. ركز فقط في إنهاء عملك"، "هل تعتقد أنك أعلم من الإدارة بهذه النقطة؟؟!!".

وانتهاكات بلطجية الفكر لحرمة العقل لا تقل خطورة عن جرائم بلطجية السياسة، بل تفوقها أحياناً، فالرأي العام يستنكر فعل بلطجية السياسة، أما بلطجية الفكر فيجدون لكلامهم رواجاً خاصة عندما تكون ثقافتهم هي السائدة، وبلطجية السياسة يُستخدمون من قبل بعض النخب السياسية، وربما تتبرأ النخب منهم بعد ذلك، أما بلطجية الفكر فقد يكونون في قمة الهرم في مؤسساتهم، ويمثلون نماذج يُحتذى بها، وهم أنفسهم الذين يمارسون قمع الأفكار دون وسيط، وعادة ما تكون كلمتهم مسموعة، وخطب ودهم مطلوب، لذلك يسكت عنهم الرأي العام داخل مؤسساتهم، أي أن البلطجة هنا **بلطجة نخب**.

والمؤسسات بصفة عامة لا تحارب كل الأفكار، **فأي فكرة جديدة تُرسخ الوضع القائم ستحظى بالتكريم**، أما الأفكار التي يُحكم عليها بالإعدام، فهي التي تتناول مسار المؤسسة

من أساسه، وجدوى وجودها، واستراتيجيات تحركها، ومدى إنجازها، ومعايير وآليات تولي القيادة.

إن أي مجتمع يصير فيه التفكير جريمة فهو على خطر، وأي وسط تُطارَد فيه الفكرة سيفتقد حتماً مقومات الحياة، فالأفكار أكسجين التنفس الذي ينعش رئة أي مجتمع ليكون قادراً على التطور، وتموت الأمم حضارياً إذا أصيبت بأزمة التعامل مع العقول، واعتبرتها عدواً.

وقد انتبهت بعض المؤسسات في عالمنا العربي إلى خطورة القطيعة مع العقل، وقررت أن تبدأ المصالحة معه، واستبدلت رعاة الفكر ببلطجية الفكر، مدركة أنها لن تتطور إلا إذا سادت فيها ثقافة احترام الإنسان، وتقدير عقله، وعلمت أنه رأس مالها فترعاه وتستثمر فيه وتشجعه على أن يدعمها، لا أن تعتقل ملكاته، ورأت فيه مصدر تميزها، لا تهديد وجودها واستقرارها.

اختارت كثير من المؤسسات لصافرات الإنذار صوتاً مدوياً .. **"احترس....تسلل إلينا عقل"**... وفي ناحية أخرى نرى مؤسسات واعدة تسعى لتقديم النموذج، مؤمنة أن أمتنا ستبرع وتنافس في السباق الحضاري يوم أن ترن صافرات الإنذار في مؤسساتها.. **"احترس....سيتفلت عقل"**.

الفيلم مش حقيقي

فن البحث عن الحقيقة

كنا نتجاذب أطراف الحديث منتظرين الفيلم.. أنهَكَنا الحوار... لم تُوقِف حركة شفاهنا سوى موسيقى المقدمة، لتفتح بوابة تنقلنا إلى عالم السينما.. صمتتْ الألسنة.. البطل يجري... يرتطم بالأرض إثر حادث سيارة... يتناثر الدم من وجهه... تأملت وجوه أصدقائي... الألم يغزو العيون.. قاطعتُ صوت الصمت قائلاً: **"لا داعي للحزن.. هذه محاليل حمراء وليست دماء ... الفيلم مش حقيقي"**... انفجروا غضباً من مقولتي وتوعدوني... ثم بدأ التركيز من جديد.

في مشهد الفرح، تستعد العروس ليوم طالما حلمتْ به، رأيتُ فرحة في عيني طفلة زميلي الصغيرة التي تجلس بجواري، فهمستُ في أذنها: **"لا تفرحي هكذا... الفرح مش حقيقي"**... فكادت تفترسني وناشدتني الصمت... فوعدتها أن ألتزم..

وفي مشهد العراك... سيسقط أحدهم من أعلى... احتبست الأنفاس... الكل يخشى لحظة السقوط... بدأتُ أكتب رسالة قصيرة على هاتفي المحمول... سقط البطل من أعلى.. ضغطتُ زر الإرسال فور ارتطام البطل بالأرض، ها هي الرسالة تصل إلى هواتف أصدقائي.. فتحوها فوجدوا.. **"هذا دوبلير.. الممثل لم يقفز... الفيلم مش حقيقي"**... فقدوا السيطرة على أعصابهم وأقسموا ألا أصحبهم في أي فيلم.

أليس من العجيب أنك تشاهد الفيلم وتعلم مسبقاً أن ما يجري فيه ليس حقيقياً – بداية من أسماء الممثلين وانتهاءً بالأحداث – ثم تتفاعل معه فرحاً وبكاءً وترقباً وحذراً؟؟!! أليس من المثير أن يقطع انتباهك اتصال هاتفي ثم تعود بعده متسللاً إلى الشاشة مندمجاً مع الممثلين، مغادراً الزمان والمكان؟؟!! أليس من المذهل أنك تشاهد فيلماً قديماً مات كل ممثليه – ولعلك

شاهدته من قبل عدة مرات، ثم تندمج معهم وتتألم لأحدهم إذا ضُرب؟؟!! بإمكانك تفسير كل ذلك ببساطة... **أنك تريد أن تصدق، فرهنت عقلك طواعية لشخص آخر يتحكم فيه.**

كم أرقتني ظاهرة إعارة العقل للغير، فحالة الاستسلام العقلي تتم طواعية، كنت حريصاً أن أُذَكِّرهم أن هذا تمثيل، لا داعي للبكاء، أو للفرح، فكل ما ترونه ليس حقيقياً، وهذا المشهد تم تصويره ما لا يقل عن خمس مرات، والحجرة التي تبدو وكأنها خاوية من البشر تكتظ بأفراد حُرموا من الدخول في كادر اللقطة من مخرجين ومصورين... الخ، المفارقة هنا أن المُشاهد يعرف كل ذلك، لكنه يريد التصديق، بل ويتأذى من أي محاولة تعيده إلى الواقع، ولم يكن مفعول تنبيهاتي أثناء الفيلم ليدوم أكثر من ثوان؛ حتى كانت **العقول تستجيب لشهوة الاستسلام.**

إنها حالة من تدافع الأفكار داخل العقل، تدافع بين الحقيقة، وبين الفكرة التي يريد أن يختزنها، لتهيمن بعد ذلك على المشاعر وقد تُتَرجم إلى سلوك، إننا كثيراً ما نرى ونفسر الأشياء على غير حقيقتها، **لأننا نرغب في رؤيتها بشكل يروقنا**، ننتقي من الواقع بعض اللقطات التي تخدم فكرة في أذهاننا، لنُكَوِّن صورة رقمية وهمية تبكينا وتفرحنا وتستنفرنا وتقعدنا، تماماً مثلما أطلقنا على الممثل "بطلاً"، وعلى التمثيل "حدثاً حقيقياً"، وعلى الديكور "أثاثاً"، وعلى المحاليل الحمراء "دماءً". فإن أرادت مجموعة أن ترى العالم قائماً على الطائفية فستراه كذلك، مهما ذكَّرها الآخرون بأن الواقع أكثر تعقيداً من هذا التبسيط، وأن حقائق الأحداث تختلف عن الفيلم المعروض، وتحتاج إلى تحليل يتجاوز القشور إلى الجوهر، وتتطلب الانتقال من المشاهدة عبر شاشة التلفاز إلى زيارة الأستوديو، **ومن المؤكد أن مساعي من يحاولون كشف الخمار العقلي لن تُقَابل بترحاب، نظراً لقابلية العقل للاحتجاب، والرغبة في تكوين صورة رقمية عن الواقع تختلف عن الصورة الحقيقية.** نجد نفس النموذج في بعض المؤسسات على تنوع مجالاتها، عندما تُقنع القيادة نفسها بأنها بذلت ما في وسعها

وحققت إنجازات، في حين أنها تبذل جهداً في القفز في المكان، وكثيراً ما تتأذى الأغلبية المغيبة في هذه المؤسسات من محاولات التنبيه التي تقوم بها الأقلية اليقظة، ولا تتورع عن تصنيفهم كمجرمين... تهمتهم **إفساد متعة مشاهدة الوهم**.

آن لنا أن نتحكم في عقولنا، ونأبى تسليمها لأسر فكرة أو شخص، وأن نخوض معركة تحرير العقول لنعلن استقلالها، ونرفع عليها أعلام التجديد. ويتطلب هذا أمرين أساسيين:

أولاً: معرفة بهذا الداء... داء إعارة العقل للغير، وقابلية الإصابة به.

ثانياً: تحديث المدخلات المعرفية بشكل متجدد، ليتم تناول القضية الواحدة من كل الزوايا المطروحة، ويعاد رسم صورة عن الواقع والذات والآخر بشكل دوري.

إن العقل الحر لا يستنكف أن يغير فكرته إن شعر بسيطرة فكرة وهمية عليه، ويرفض بدوره تلقين الآخرين فكرته، أو توريثها لجيل لاحق دون دعوتهم لتمحيصها ووضعها في معمل النقد ليتم تحليلها بشكل دقيق، فهو لا يدعو مَن بَعدَه للاستمرار على فكرته، بل يدفعهم ليراجعوها من جذورها لعله عجز عن إبصار أجزاء من الحقيقة، إنه يعزف أعذب ألحان القرن الجديد، لتطرب جنبات الدنيا بهذا الصوت الهادر.. **"علموا الجيل طريق الاستقلال، ولا تقيدوا عقولهم بأغلال أفكاركم، ولا تبيعوهم أفلام أوهامكم ليشاهدوها على اعتبارها حقائق. دربوهم على عشق الفن...فن البحث عن الحقيقة."**

طلعت الأول زمان

نجاح الأمس هو فشل اليوم

كانت العائلة تلتقي مرة كل عام بحلول الأجازة الصيفية، وكالعادة يبدأ كبير العائلة بالاطمئنان على نتائج امتحانات الأطفال الثلاثة، كان اثنان منهم يحصلان دائماً على أعلى الدرجات. ما أثار انتباهي هو ثالثهم الذي كان يتعثر دائماً، رغم تمكنه من تحصيل الدرجة النهائية في مادة الرياضيات مرة واحدة فقط، وهو في الصف الأول الابتدائي.

هذا يقول: ترتيبي الأول هذا العام... وذاك يقول: ترتيبي الخامس هذا العام.. أما ثالثهم يقول: **"طلعت الأول"** في مادة الرياضيات العام الماضي.

يمر عام... يلتقي الأقارب في إجازة الصيف... يطمئن الجد على نتائج الامتحانات... هذا يقول حزيناً: ترتيبي الثاني هذا العام، والآخر يقول: ترتيبي الرابع ... أما الثالث فيقول: **"طلعت الأول"** في مادة الرياضيات في العام قبل الماضي.

مرت ثلاث سنوات، والتقت المجموعة...

الأول: ترتيبي الأول هذا العام...

الثاني: ترتيبي الأول هذا العام..

أما الثالث فقال: **"طلعت الأول"** في مادة الرياضيات وأنا في الصف الأول الابتدائي.

إن نجاح الأمس هو فشل اليوم، فإن كنتَ الأول على منافسيك منذ خمس سنوات، وظللتَ تفتخر بهذا النجاح؛ فهذا يدل أنك فشلت في الأربع سنوات الماضية، لأنك عجزت عن صناعة نجاح جديد، وآثرتَ الانتساب إلى الماضي.

ومن أسباب موت المجتمعات حضارياً أن تُكثر قيادات مؤسساتها من استخدام صيغة الماضي في مفرداتها، وتصير كلمة "كنا" هي الفاصلة وعلامة الاستفهام والتعجب في خطاباتها وتقاريرها، وتكون أغنية "زمان" هي الأغنية المفضلة التي يتغنى بها طاقم العمل.

إنها لا تقتات إلا على الماضي، وتعزف عن الاشتغال بصناعة المستقبل، وتكتفي بالإحالة إلى التاريخ كلما سُئلت عن الحاضر والغد، **والذي يملك حاضراً لا يكثر الحديث عن بطولات الماضي، لأن الحاضر يأبى أن يتغول عليه الماضي، والأحياء لا يتبنون الأموات.**

لذلك تستطيع توقع إنجاز أي مؤسسة من خلال نظرة مبدئية لنوعية القصص التي تُحكى ويُستشهد بها داخلها، هل تعلن إفلاسها عن مواكبة الواقع فتعيش مع الذكريات واستدعاء الإنجازات التاريخية؟! أم يغلب على قصصها إنجازات الحاضر؟! أم تتجاوز ذلك لتستشرف المستقبل؟!

أنت تعيش حيث تتحدث.. فإن كنتَ تتحدث عن الماضي فحسب؛ فهذا يعني الهروب من مواجهة الواقع إلى الخلف، ووأد الحاضر بحقنه بمسكنات التاريخ، أما إن كنتَ تتحدث عن حاضرك فأنتَ مشغول بالحاضر، وإن كنتَ تتحدث عن أفكار من المستقبل، **فأنت مُتَيَّم بزيارة المستقبل**.

البلياردو

من الواضح أن إخفاقاتنا ليست نتاج دهاء أعدائنا

كنت على موعد مع صديق لي في النادي.. وصلت مبكراً... تجولت حتى يحين الموعد... دخلت قاعة البلياردو... بدأت أتأمل اللاعبين... لفت انتباهي طفل... أسرتني مهارته، وأعجبتني وقفته كفارس محترف من فرسان البلياردو، سألته عن كيفية وصوله إلى هذا المستوى، فعرفت أنه يتدرب يومياً ساعتين، وأنه من عشاق هذه اللعبة.. دعوتُه – بعد أن حسم المباراة لصالحه – أن يتجول معي... فاقترح الذهاب إلى ملعب كرة القدم.

انتقلنا إلى الملعب، وازداد شوقي لرؤية هذا البطل الصغير في ساحة الكرة، بدأت المباراة، كانت عيني لا تفارقه، لكنه صدمني!!... فقدرته على التحمل ضعيفة جداً، وتصويبه للكرة قلما أصاب حدود المرمى، كان أمراً مذهلاً، وحزنتُ كثيراً.. فقد توقعتُ استمتاعاً بأدائه كما أمتعني في البلياردو... انتهت المباراة، وأتاني وأنفاسه تزلزل جسده.

قلت له: لم يعجبني أداؤك.

رد متعجباً: أنا لا أتدرب على كرة القدم، ولست لاعباً متمرساً فيها ... أنا لاعب بلياردو....

أحسست أنني بالغت في قدرات الطفل، أو أردت أن أرى منه فعلاً لم يرده هو من نفسه، فقد أراد فقط أن يُمضي وقتاً ممتعاً مع الكرة، وأردته بطلاً في كرة القدم.

كثيراً ما تتدرب أمتنا على لعبة البلياردو التي لا تستدعي بذل جهد بدني كبير، أو لياقة عالية، وتغفل عن أن المباراة المدعوة لخوضها في كرة القدم. وشتان بين حجم كرة القدم التي تضربها بعنف وتتطلب قدماً قوية، وبين حجم كرة البلياردو التي تغازلها بعصا خفيفة بعد أن ترتشف بعض الشاي، وبون شاسع بين ملعب البلياردو الذي تطوف حوله بدلال، وملعب كرة القدم

المهيب الذي يسلب الأنفاس، ويقهر العدائين من الرجال، وهناك تمايز كبير بين خصمك في لعبة البليارد، الذي يتفرج عليك وأنت تلعب، ويمنحك فرصتك، وبين خصمك في كرة القدم الذي لن يتورع عن تسويتك بالأرض قبل أن تدخل منطقة الجزاء. إن كثرة التدريب على البليارد لا تغني عن لاعب كرة القدم شيئاً، والساعات الطوال التي يقضيها في التمرس على هذه اللعبة لن تشفع له حينما ينتظر الجمهور عَدْوَه برشاقة ثم يسدد ويحرز الهدف. إننا مع كل مباراة نمارس نفس السلوك، فنخرج من قاعة البليادر إلى الاستاد، ثم نشكو قوة المنافس، ونندد بظلم الحَكَم، وقد نلعن الجمهور المتآمر، ثم نقسم أننا تدربنا الساعات الطوال، وفعلنا ما بوسعنا.

من الواضح أن إخفاقاتنا ليست نتاج دهاء أعدائنا، أو تفوق عدتهم وعتادهم، وإنما هي نتيجة طبيعية غير مفاجئة لممارسة البَلَه السياسي على مدار عقود، وهدر الأوقات في افتعال الحراك.

وها نحن نبصر أداءً راقياً يذهل العدو قبل الصديق، عندما نجد منظمات جادة، ومؤسسات قررت أن تستعد للمباراة.

إن لاعب الكرة الذي يتدرب على البليارد أشبه بالمقاتل الذي يتدرب على العمل البرلماني، وبالمناضل السياسي الذي يتدرب على العمل الخيري، وبصاحب المشروع الخيري الذي يتدرب على تدريس الطلاب.

يحتاج الأفراد والمؤسسات في كل القطاعات إلى وعي بالأدوار التي سينتدبون أنفسهم لها، فيدركون طبيعتها جيداً، ثم يتدربون ويمتلكون أدواتها، وإلا ظلت الأمة تبذل جهوداً في البليارد، بينما الجمهور ينتظرها في استاد كرة القدم، وإذا قرر الأبطال أن يخوضوا المباراة، فليكفوا عن الجري حول الملعب "التراك"، وليكسروا خوفهم من اقتحام المساحة الخضراء، حيث يدور التنافس.

يجب أن نحدد أولاً أي المعارك نخوض، ثم نستعد لها بما تتطلبه من إعداد. وليس من البذل أن يسيل العرق في التدريب ولا توجد نية خوض المباراة، **وليس من الفطنة أن تستنزف عمرك لتؤسس مدرسة للسباحة في قلب الصحراء.**

الصورة مقطوعة

أيها النقاد.. أعيروني أعينكم

كنا بصدد تأسيس مشروع، حددنا فكرته، وأجبنا على بعض الأسئلة الأولية.. دعوت الفريق لزيارة شخص نطرح عليه الفكرة، سألوني إن كنت أتوقع مساعدته، أجبتهم بالإيجاب -رغم علمي أنه سيعارض الفكرة بقوة.. ذهبنا إليه.. طرح عليهم أسئلة صعبة.. خرجوا مستائين، فقد دمر لهم الفكرة.. قلت لهم: "ألا تنتبهون؟؟!!..الصورة مقطوعة".

يتحدث الكثيرون عن النقد البناء والهدام، ويرون أن الأول محمود والآخر مذموم، ولا أرجح هذا التصنيف، فالنقد قد يصنف إلى نقد موضوعي وغير موضوعي، وليس ذلك فحسب، بل بين الموضوعية واللاموضوعية عشرات الدرجات، فربما تختلط الموضوعية مع اللاموضوعية، فتتسم نقاط بموضوعية تامة، وأخرى بلاموضوعية. لذلك فحتى هذه الدرجات نسبية يصعب حسم القول فيها.

ويصعب تصنيف النقد إلى هدام وبناء، لأنه – في رأيي- لا يهدم ولا يبني مشاريعاً، أو يقتل أو يطور فكرة، **فعملية الهدم والبناء مرتبطة بالشخص أو المجموعة حاملة الفكرة** الموضوعة على منصة النقد، فقد يمتليء النقد بآراء قيمة تبني، لكن المجموعة المتلقية له تكون متعصبة متحجرة الفكر، فحينها تهدم مشروعها بتجاهل النقد، مستمرة في إعادة إنتاج أفكارها القديمة، وقد يكون النقد لاذعاً فينعته البعض بالـ"هدام"، لكنه يصادف عقولاً تتمتع بالحيوية، **فتلتقط من ثنايا صواعق النقد ما تعيد به بناء وتشكيل أفكارها.**

لذلك أرى أن قضية الهدم والبناء مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحامل الفكرة، وليس بالناقد أو النقد ذاته، **وكم من ذكي استفاد من نقد عدوه،** بل وسعى إلى الاستماع إليه رغم يقينه أنه لن يوجه بالضرورة نقداً هادئاً عذباً، وأن خصمه لا يسعى إلى بنائه وتطويره، لكنه يدرك أنه

سيضيف له زاوية نظر دقيقة جداً، غالباً ما يغفل أو يتعامي العقل عن إبصارها. إذن قد يتعمد خصمك نقدك لهدم فكرتك، لكنه يمنحك مواد البناء دون أن يدري.

إن النقد يمثل زوايا النظر المختلفة للمشهد الواحد، ويضيف عقولاً جديدة إلى عقلك كي تفكر، وعيوناً تزيد عينيك قوة في الإبصار كي ترى. والعاقل لا يلتفت إلى شخصية الناقد وأسلوبه، وخلفيته التاريخية، ومدى قربه أو بعده عن فكرته، أو نعته بالبناء أو الهدام، مدركاً أن عملية الهدم والبناء في يده هو، كما أنه لا يضع شروطاً للناقد، كأن يتأدب ويتلطف، أو يزين كلماته – وإن كان ذلك أدعى لقبول الرأي، أو يكون من داخل فريق العمل حتى يحق له إبداء الرأي، إلى آخر ذلك من معوقات قبول النقد.

كم أعجبني مطاردو الأفكار أينما كانت، فيذهب فريق عمل بمشروعه ليعرضه على من يُعتقد أنه سينتقد فكرته بقوة، فيستفيد من أسئلة الناقد الحرجة، ولعل أعضاء الفريق لا يملكون أجوبة كافية، لكنهم يختبرون صلابة الفكرة من خلال تلك الأسئلة، فيضعون أيديهم على مواطن قصورها، ومن ثم يبدأون في تشذيبها وتوفير الأجوبة على الأسئلة المطروحة عليها، إنهم لا يطلبون من الناقد "المشاكس" أن يشاركهم في التنفيذ، كأن يقولوا له.. **"هيا شمر عن سواعدك وانزل الميدان معنا"**، فقد استفادوا منه في أعمق من ذلك، في بناء الفكرة وتطويرها، وقد يستعذبون وضع أفكارهم تحت المطارق لتزداد حدة، فيخصصون لمشروعهم **كتيبة من النقاد**، تُعرض عليها الأفكار، لسان حالهم **"أيها النقاد.. أعيرونا أعينكم"**. وليس ذلك فحسب؛ بل ويُفردون ملفاً لتسجيل أخطائهم، ولا يخجلون من توثيقها، لتكون في أرشيف ملفات المشروع، ويستفيد منها من يليهم.

وعلى النقيض هناك من يتهيبون النقد، ويبنون بينهم وبينه أسواراً عالية، ولايدونون أخطاءهم، ويدافعون عن كل تاريخهم، متخذين من النقد عدواً، وينظرون إلى

طارحه بقلق، مفتشين عن بطاقة هويته، ظانين أنهم بذلك يحمون فكرتهم، وما دروا أنهم يخنقونها، ويسدون عليها منافذ الهواء، ثم يتحلقون حولها صارخين.. تَنَفَّسي.

على كل صاحب فكرة أن يدرك أنه يمسك صورة مقطوعة، ودوره أن يتقن فن تركيب الصور، فيدرك أنه يمتلك قصاصة من الصورة، وأن بقية القصاصات مع آخرين، وأن عليه استجماع كل القصاصات كي يبصر الصورة، بعض هذه القصاصات مع أفراد فريقه، وبعضها مع المتحاملين، وبعضها مع الأعداء، وقد يستعيد قصاصة بكلمة طيبة، وأخرى بكلمة لاذعة من حامل القصاصة، عليه أن يدرك أن لكل قصاصة ثمناً عليه أن يدفعه، وأن واجبه استعادتها جميعاً، وأن يوقن أن فتح بوابات العقل لمرور مواكب النقد – بدون قيد – يضمن استجماع كل قصاصات الصورة.

الطريف أن البعض يبذل الجهد في جمع القصاصات، فيستمع لكل الآراء، لا ليركب الصورة، بل ليحرق تلك القصاصات، ويبقي قصاصته التي بين يديه، ثم يقنع من معه أنه استمع لكل الآراء وتأكد من صحة ما يقوم به.

صراع الأحلام

أنت تعيش حلم غيرك

حَلَّقتْ بنا الطائرة عالياً، وتنحتْ السحب جانباً كي نتجاوزها إلى ارتفاعات شاهقة.. كان يجاورني شخص يركب الطائرة لأول مرة.. تشكلتْ على قسمات وجهه علامات السعادة والتعجب.. قال لي: "كان حلمي ركوب الطائرة".. قلت له: **"هذا ليس صحيحاً.. أنت تعيش حلم غيرك"**.

لقد تخيل عباس بن فرناس البشر يطيرون، وزار المستقبل ثم عاد ليخبر قومه أنه رأى الناس تطير، كان يبدو الأمر حينها جنوناً، لكننا اليوم نعيش حلم ذلك الحالم، إننا ونحن نركب الطائرة، لا نفعل أكثر من أننا نعيش حلم شخص آخر.

وإذا تأملنا قليلاً سنكتشف أن معظم حياتنا لا تتجاوز تحقيق أحلام آخرين، فعندما تعتلي بسيارتك جسراً، أو تركب قطاراً يسير تحت الأرض، ستجد أنك تعيش أحلام من رأوا الناس يسيرون معلقين في الهواء، أو يختصرون الطرق تحت الأنفاق، لقد بذل أولئك الحالمون جهدهم حتى يقتحم الخيال بوابة الواقع، فطوعوا الواقع ليذعن للحلم.

وعندما تتقدم للعمل في شركة كبرى، فإنك في الواقع تحقق حلم صاحب هذه الشركة، الذي تخيل شركته ممتلئة بالموظفين النشطين، وأرادها قِبلة المتميزين، فتعود لتفتخر أنك تعمل في شركة عظمى، وما دريت أنك تفتخر بحلم غيرك. ونلحظ نفس الفكرة في عالم السياسة، فالشعوب المقهورة تعيش أحلام الديكتاتوريات، التي تخيلت يوماً ما سجود الشعوب لها، فحققت الشعوب المذعنة ذلك الحلم، ونالت الديكتاتوريات ما أملته في السيطرة، وسنجد بعض الدول الضعيفة

تعيش حلم قوى الاستكبار، وتنفذ دور التابع، وهو الدور الذي حددته لها قوى الاستكبار في حلمها، حين اختارت الهيمنة حلماً.

وإذا افتقدت أمة ما القدرة على الحلم فستظل تعيش أحلام أمم أخرى، وهؤلاء الذين ينادون بالواقعية "وفن الممكن" على اعتباره فن الاستسلام للظروف؛ لم يدروا أن أحلامهم ليست خارج نطاق الممكن، فنحن الذين نحدد "الممكن" بتجربتنا، وهل كان من الممكن في عقولنا أن يسير شخص في الشارع يعلق قطعة معدنية في أذنه، ويكلم الآخرين، ويجري اتصالاته من أي مكان؟؟!!

والجنون هو الصفة الأساسية التي يُنعت بها الحالمون، فالأنبياء وُصفوا بها، وقُتل علماء قالوا بكروية الأرض في وقت كان يُعتقد أنها مسطحة، **إن الحالمين هم زوار المستقبل**، الذين يكسرون التصور الحاكم "البارادايم" في عصر ما، ليردموا الفجوة بين الممكن والمستحيل. مستعلين على قيود الواقع، مدركين أن حلول مشكلاته تأتي من زيارة المستقبل، وأن الضغوط لا ينبغي بحال من الأحوال أن تقيد العقل، أو تعتقل فيه ملكة التخيل، **كانوا يتخيلون شكل المستقبل الجديد، ثم يعودون به إلى الواقع.**

يمكن أن نجمل جوهر الصراع في الحياة بأنه صراع الأحلام، فصاحب الشركة الكبيرة يتأذى منك إن وجدك ستخرج من أسر حلمه لتؤسس شركتك وتبني حلمك المستقل، ورئيس الحزب سعيد برؤية أتباعه يدورون في فلك حلمه، ويخشى من خروج عضو بفكرة حزب جديد، يحمل حلماً جديداً، والديكتاتوريات وقوى الاستكبار تحتكر حق الحلم، وترد بقسوة من يحلم بعالم العدل والحرية، بل وتوهم العقول باستحالة الحلم.

إننا في دنيا الأحلام نجد البعض يحلم، ويوزع الأدوار على الآخرين في حلمه، والبعض الآخر يحاول الخروج من أسر دور فُرض عليه في حلم غيره، وآخرين قُتلت عندهم ملكة الحلم، واستسلموا للقيام بدور في حلم غيرهم، والبعض اختار أحلام الآخرين بوابة يطلق من خلالها حلمه.. ترى هل نحسن صناعة الأحلام أم سنظل نعيش أحلام الآخرين؟؟!! متى نحلم لأنفسنا؟؟!! **متى ننهي احتكار الحلم؟؟!!**

نظارة القائد

نظارتك ستحدد مستقبلك

بدأتُ أبحث عنهم... جذبتني أشكالهم... كنتُ أرقبهم... شباباً وشيوخاً، نساء وفتيات، ولم ينج حتى الأطفال من قصف نظراتي.. تساءلت!! ترى ماذا يرون من خلفها؟؟!!... وهل كلهم يبصرون نفس الشيء بنفس الكيفية؟!! بل لماذا أصلاً يلبسونها؟!!

البعض يلبس نظارات شمسية فيرى عالماً بني اللون يتجنب به سطوع شمس العالم الحقيقي، والبعض يستعمل نظارات تضبط له النظر مخافة أن يسقط أسير الحفر في الطرقات، وآخرون يكادون لا يبصرون بدونها فيرون واقعاً ضبابياً، كل هؤلاء اجتمعوا على شيء واحد، أنهم قرروا أن **أعينهم المجردة بحاجة إلى أداة جديدة تعينهم على الرؤية.**

فكرتُ أن أشتري نظارة فأعياني البحث ولم أجد ما أريد، مَلَّ البائع ونفد صبره، **كنتُ أبحث عن نظارة أُبصر من خلالها المستقبل**، نظارة أرى من عدساتها الأمل حين يستغرق الناس في الألم، أبصر منها زمجرات التحدي والممانعة، حينما لا يبصر الناس إلا خربشات الآهات على عدساتهم، إنني أبحث عن نظارة استخدمها قادة التاريخ العظام، ومجددو العصور، فكانوا من خلالها يبيعون شعوبهم الأمل، كانوا يرون في كل مشهد فرصة لإثبات التحدي، فلم يروا في الفقر بؤساً؛ بل أبصروا فيه وقود الثورة، ولم يبحثوا عن مآسي الفقراء ليزيدوا إحباط الناس؛ بل نقبوا عن طليعة تمكنت من ترويض الفقر واستخدامه لتغيير الواقع وصرخوا في العالمين "بمثل هؤلاء فلتقتدوا". كانوا يبشرون قومهم، **صناعتهم رؤية المستقبل لا الترويج للواقع**، فالواقع السيئ يعلمه الكل، ولا يتطلب تغييره ندباً نواحاً، لكن الفرص المنثورة في هذا الواقع تتطلب رؤية ثاقبة تستجمعها، ونظارة مختلفة تحيط بها، إنني باختصار

أريد نظارة نُقشت على عدستها الأولى كلمة **"إمكانية"**، وعلى عدستها الثانية كلمة" **الفعل"**.. إنها نظارة تهتف **بإمكانية الفعل.**

أخذتُ أقلب النظارات فإذا بها من صناعة خصومنا، إنهم يبيعوننا نظرات البؤس والحرمان، ويكرسون لدينا معاني العجز واليأس، إننا نبصر ما يريده خصومنا، ولا نبصر ما نصنع به مستقبلنا، أدركتُ أن نظاراتنا ستحدد مستقبلنا، وتيقنتُ من حاجتنا إلى تصنيع نظارات محلي، ينطلق من مصانع القادة الثوار، ومن ورش المفكرين الأحرار، نظارات جديدة، تتلون بألوان المستقبل، فلا نرى إلا حركة وعزماً، ولا نبصر إلا فرصة ونصراً. هذه النظارات سيبيعها الكتاب والمفكرون والمدرسون والقادة والإعلاميون والفنانون وكل من هو معني باستنهاض الأمة. وسيفسرون من خلالها كل مشهد ظاهره بائس ليُظهروا للناس الفرص الكامنة، فبين سيل الأمطار ترجل شاب ذكي ليبيع الناس المظلات، فأبصر في السيل فرصة، وعند اشتداد الحر تكسب بائعو المرطبات الذين يقتاتون من الحر ويعتبرونه موسم خير وبركة، وبين مطارق الأعداء على جسد أمتنا تجلت بطولات أمة لن تموت.

لن نعزف ألحان العذاب بل سنشدو بأغاني كسر القيود، لن نكتب عن الجراح بل سنغزل انتفاضة المجروح ونعرض للدنيا بسمته، **لن نصور دمعة الطفل بل سنسلط الكاميرا على قبضته المشدودة الغاضبة.**

إن لكل مشهد أكثر من زاوية للنظر، فعلينا أن نختار بين الزوايا، وأن نحدد مصيرنا باختيارنا، إما أن نكرس اليأس فنلجأ إلى تصوير الهواة الذي يلتقط صورة لظاهر المشهد، أو نستجلب اللقطات بحرفية من زوايا صعبة تنطق بالقدرة على الفعل .**فالقائد مصور محترف بالدرجة الأولى**، ويأبى لقطات الهواة التي يتمكن منها كل إنسان.

بعد أن خرجتُ من المحل، تصفحتُ جريدة في الطريق، وجدت أحد الكتاب يتحدث عن الأمة الغرقى والمنكوبة في مقال طويل، ويتوسل ويتسول من أجلها... فضحكتُ في نفسي .. وأشفقتُ على هؤلاء الذين يلبسون نظارات مكتوباً عليها "يا لهوي"[1].

[1] يا لهوي: تعبير في اللهجة المصرية عن قلة الحيلة والعجز.

الطريق طويـــــــــــــــــــــل

طريق طويل... أم نفس قصير؟؟!!

عندما كنتُ أسبح في طفولتي؛ كان الإعياء يصيبني قبل أن أصل إلى نهاية حمام السباحة، وأشعر أن المسافة التي أقطعها طويـــــــــلة، لكنني عندما كبرت صرتُ أقطع المسافة بسهولة ذهاباً وإياباً.

وعندما كنا نلعب في فناء المدرسة، لطالما أقمنا مسابقات العَدْو، وكم اختبأنا وراء الأشجار، ثم كبرتُ وزرتُ مدرستي، فتعجبتُ من صغر فنائها، وضآلة أشجارها، وخُيِّل إلي أنه من المستحيل أن نكون عَدَوْنا ولعبنا فيها واختبأنا وراء تلك الأشجار يوماً من الأيام.

وعندما نرى أمة تحاول أن تقطع أشواطاً على طريق تقدمها، ثم ينهكها التعب، ويتسلل إليها الإحباط متستراً بمقولة **"الطريق طويـــــــل.. وحسبنا أن نقطع فيه خطوة"**؛ فإن هذه القضية تحتاج إلى وقفة، فهل فعلاً الطريق طويـــل؟! إذا كان هناك طريق طوله 20 كيلو متراً، هل يعتبر طويلاً أم قصيراً؟؟!! إذا كنتَ تقطعه بسيارة تنطلق بسرعة مائة كيلو متر في الساعة فسيستغرق الوقت 12 دقيقة، أما إذا قطعته سيراً على الأقدام فربما يستغرق ما يزيد على الساعتين، بالإضافة إلى الإجهاد. فكيف نحدد إذا كان الطريق طويلاً أم قصيراً؟؟ **وهل الطول والقصر نسبي بحسب وسيلة العبور؟؟!!**

أرى أننا نسير في طرق محددة المسافة، إلا أن عقولنا تبرر لنا أحياناً عدم المسير، فترينا إياها طويلة، فطريق التحول سلكته أمم في قرون مثل الفرنسيين قبل أن يطلقوا ثورتهم، وسلكته أمم أخرى في عقود مثل الصين رغم تشبث التحديات بها. وكلا الدولتين صنعتا نهضة، **فأي الطريقين نسلك؟؟ طريق القرون أم طريق العقود؟؟**

وفي الوقت الذي نرى فيه أحزاباً ألمانية قديمة تحاول أن تقطع الطريق الطويل، نجد هتلر[1] – رغم أنه نمساوي وليس ألمانياً –يلتحق بعدهم بنفس الطريق قادماً من النمسا، لكنه يصل قبلهم ليطبق برنامجه، بعد أن تَمَلَّكَه حلم ألمانيا القوية.

إننا إذا استوعبنا ذلك جيداً أدركنا أن الطول والقصر هو أمر نسبي، بحسب عقل الناظر، وحالته النفسية وإمكاناته، فإذا سِرنا في الطريق بعقلية ونفسية وطاقة الأطفال، فسنجد المسافة طويلة وأنفاسنا قصيرة، وستعيقنا بحار الأخطار العميقة عن التنفس وتغمرنا إلى أذننا، وستعجز أعيننا عن رؤية المشهد الواسع الممتد من كل زواياه، أما إذا سرنا في نفس الطريق بعقل استراتيجي، يستمد قوته من قوة العلم، وبرغبة حقيقية في قطع الطريق، ونَفَس طويل يهزأ بالمسافة، فحتماً سنراه قصيراً، **ليس لأن المسافة قصرت، ولكن لأننا نعدو سريعاً**، وإذا أطللنا على مشهد التحولات فسنرى الأوضاع مختلفة، ليس لأن تعقيد المشهد واتساع أبعاده تغير، وإنما لأننا صرنا أطول قامة وأَحَدَّ بصراً فتمكننا من رؤيته بوضوح.

إن ترديد مقولة **"الطريق طويـــــــل"** أشبه بمُسكن أو مخدر يسبب مناعة ضد الفعل، خاصة إذا تم توريثها على اعتبارها مسلمة من مسلمات التحول، وأغنية تدندن بها الأجيال، وحكايات تغذى بها عقول الأطفال، فلا تتطور الأفكار لأن الطريق طويـــــل، ولا تتغير الاستراتيجيات لأن الطريق طويـــل، ولا تُقدح الأذهان للبحث عن بدائل تعيننا على التسلل إلى المستقبل المنشود لأن الطريق طويـــل، ويجب أن لا نتطلع إلى نصر أو نستعجله الآن، وبالطبع لأن الطريق طويـــل.

---

[1] تم استدعاء نموذج هتلر كمثال للإصرار والتحدي، وهذا لا يعني بالضرورة الاتفاق مع الأفكار والبرنامج والممارسات السياسية التي مارسها، لكن من المثير أن حامل الجنسية النمساوية يحلم أن يحكم ألمانيا، ثم يحكمها ويحصل على الجنسية الألمانية.

إن نهايات الطرق لا تزحف إلى السائرين ببطء، وإنما يعدو نحوها العـداءون، الـذين يوقنـون أنهم في سباق، وأن الزمن لن ينتظرهم، فثمة متسابقون آخرون على الطريق. ألـيس مـن العجيـب أن العلماء الذين فكروا في الصعود إلى القمر لم يروا المسافة بعيدة؟! كـان مـن الممكـن أن يقولـوا كيـف نقطع هذا الطريق الطويــل بالسيارة أو الطائرة، لقد اخترعوا الآلة الـتي تقلـهم إلى مبتغـاهم، لأنهـم قرروا في داخل أنفسهم أن الطريق يمكن قطعه، وأنهم حتماً سيصلون، واليوم صار الذهاب إلى القمـر وإلقاء نظرات على المريخ هواية يمارسها رواد الفضاء المغمورون، لقد عُبِّد الطريق، لأن مجموعة تجـرأت عليه، وأيقنت بإمكانية الفعل. **بعض الناس يتخيلون أن المشكلة في الطريق، وهـؤلاء لـن يرونـه إلا طويـلاً**، والبعض الآخر يدرك أن المشكلة في عقله ونمط تفكـيره وحجـم اسـتعداداته، والطريقـة الـتي اختارها للسير في الطريق، وهؤلاء وإن أخفقوا اليوم فغداً سيقطعونه، ويوماً ما سيراهم الآخرون يطئون بأقدامهم خط النهاية.

إلى الواقفين في الطابور

ثمة خيارات أخرى

بينما أنا ذاهب لأشتري تذكرة ركوب مترو الأنفاق؛ إذ بي أُفاجأ بطابور طويل، وكلما أتى فرد لشراء التذاكر ينظر مندهشاً لطوله ثم يقف تلقائياً فيه، بالرغم من وجود شباكين آخرين لشراء التذاكر لا يقف أمامهما أحد، كأن الجميع يقول في نفسه: **"بالتأكيد لا تُصرف تذاكر من هناك... إذا كانت تُصرف لَمَا كان كل هؤلاء مصطفين بهذه الطريقة في طابور واحد"**.

ذهبتُ إلى أحد الشبابيك الخاوية من البشر، فوجدتُ الموظف يبيعني التذكرة، فإذا بالسيل المنهمر يخرج من الطابور الطويل – لما رأى التذكرة في يدي – ليأتي على الشباك الذي وقفتُ عنده. فقد أدركوا أن البيع متاح في الشبابيك الأخرى.

ولعل الناس تُفضل الأماكن التي اكتُشفت من قبل، وتحب أن تأنس بالكم البشري، على اعتبار **استحالة أن تكون كل هذه الجموع على خطأ**، وحتى إن كانوا مخطئين، **فلا بأس من قبول وحدة المصير**.

أما قادة التحولات فيتميزون بأنهم **لا يقفون في ساحة مزدحمة**، لأنهم لن يضيفوا عليها إلا أشخاصاً آخرين يأنسون بالزحام، لذلك نجدهم يبحثون عن الفرص الكامنة في الطرق غير المكتشفة، ويرون أن من سار خلف الناس لن يصل إلى أبعد مما وصل إليه الناس، فيأنسون بالوحدة بل ويتباهون بها، ويتصفون بالتفرد، وهم الذين يصنعون النقلات النوعية في التاريخ، خاصة عندما يحررون عقول الناس، ويقنعونهم أن هناك طرقاً أخرى يمكن السير فيها.

أيقنتُ أن الكثير من معطلات تقدمنا ليست إلا نتاج عقولنا، وأنماط تفكيرنا، ورغبتنا في الوقوف في الأماكن المزدحمة، والتهيب من اكتشاف السبل الجديدة.

إن المنطق يقول أنك إما أن تظل أسير تجارب الماضي، وتابعاً لمحاولة من سبقك، وتقف بدورك في طابور طويل، أو تجرب اكتشاف سبيل جديد ربما يقود إلى حلول، فإن أخفقت في اكتشاف السبيل، فالطابور موجود، وهو خيار قائم، وربما يصل الواقفون فيه إلى مبتغاهم ببطء، وإن نجحتَ ساهمت في إيجاد مسار جديد يسهل الحركة ويختصر الزمن.

إن المجتمعات التي تسعى للنهوض تبذل جهدها في تَلَمُّس الطرق، ويبدع قادتها في إيجاد البدائل، وهم المعنيون بأن يحلوا أزمة الحركة البطيئة في عصر السرعة، فتتسارع وتتوالى المبادرات التي يؤمل أن تقود إلى حل، فنرى مجتمعات حية تأنف الاستسلام وتعشق المحاولة، أما ما يُدهش فعلاً في مجتمعات أخرى، مراقبة قادتها للطابور الطويل، بل وتنظيمه، **ثم معاقبة من تسول له نفسه الخروج منه لاكتشاف المستقبل والبحث عن مخرج.**

إستراتيجيـــــة التحلـــــيق

سنصنع صاروخاً ثم نفككه

عندما نسافر إلى بلد ما فإننا نستقل طائرة، وبوصولنا إلى البلد الذي نريد نترك الطائرة ونستقل السيارة، دون أن نبكي على فراق الطائرة وعدم استصحابها معنا في السيارة.

وعندما يذهب شخص إلى مكان ما عبر وسيلتين من وسائل المواصلات، كأن يتنقل عبر سيارة أجرة ثم ترام؛ فإنه لا يعير الوسيلة الأولى اهتماماً إذا ما أنهتْ مهمتها، ولا يشغل باله إلى أين ذهبت، أو من استقلها بعده، أو هل أصابها العطب أم لا تزال تعمل.

إن الوعي بوسائل المواصلات التي تقودنا إلى المستقبل أمر في غاية الأهمية، فرحلة المستقبل تتطلب قطع مراحل بوسائل شتى، تلك الوسائل التي نطلق عليها **"أدوات الفعل"**، ويعد الانتباه إلى فنون إدارة أدوات الفعل من صميم أولويات المتصدين للتغيير في أي مجال.

فربما نؤسس مؤسسة لهدف، ثم نغلقها بعد أن تؤدي دورها، لنؤسس أخرى تقوم بمهمة مختلفة.

وقد تؤسَّس حركات وجمعيات وأحزاب لتحقيق نقلة في مجتمع في مرحلة ما، لكنها لا تصلح لأن تؤدي دور المرحلة التالية، ويكون استصحابها في تلك المرحلة كاستصحاب الطائرة في السيارة، وقد يكون التحالف مع جهة ما أمراً ضرورياً في فترة، وفي فترة أخرى يجب فض هذا التحالف، **إن بناء المؤسسات**

وإقامة التحالفات كلها أدوات فعل يمكن أن تصدأ بعد فترة، وأدوية للمجتمعات قد تقتل إذا انتهت صلاحيتها.

كم أسعد برؤية الرشاقة تتجلى في تفكير القادة، وهم يناورون الواقع، ويُعجزونه بأدواتهم الخلاقة، ويتنقلون بينها بشكل مذهل، ولا يرون بأساً من كسر أداة استعملوها من قبل، بعد أن صارت ضارة أو معيقة، **إنهم لا يتعاطفون مع أدواتهم، بل يتغزلون في أحلامهم، ولا يبكون وسيلة أدت دورها؛ بل يتخوفون من أن يخذلهم وزنهم عن الإرتقاء**، فيتخذون من استراتيجية التحليق معراجاً نحو المستقبل. أليس الصاروخ ينطلق من الأرض بكامل أجزائه بقوة دافعة، ويتخلص تدريجياً من جزء من هيكله مع كل مرحلة حتى يخف وزنه وتزداد سرعته ليتمكن من اقتحام الفضاء؟؟!! فكل جزء من الهيكل له وظيفة في مرحلة ما، لكنه في مرحلة أخرى يصبح عبئاً وقَيْداً. لقد طور العلماء هذه الآلية وأبدعوا الصاروخ متعدد المراحل من أجل الرحلات الطويلة،[1] وبهم يتشبه القادة فيجيدون لغة المستقبل، **ويُعَلِّمون الجيل فن إطلاق الصواريخ**، ويعيدون تعريف الهدم والبناء.

يظن البعض أن البناء يعني بالضرورة استخدام نفس الأداة، فتتردد مقولة **"لم لا نبني على ما سبق!!"**، وأرى أن جوهر البناء يعني البناء على نتاج استخدام هذه الأداة من نجاحات أو إخفاقات، وربما تطلب البناء استمرار استخدامها أو تطويرها أو تدميرها. فهدم بعض الأدوات ربما يكون هو سبيل البناء، والبناء على الأدوات المتهالكة هو عين الهدم. **فتأسيس ناطحة سحاب يستوجب إزالة البيت المتواضع، أما تأسيسها فوق سطحه فيعني كارثة محققة.**

---

[1] كل مرحلة في الصاروخ متعدد المراحل لها محرك صاروخي ووقود دافع. وقد طوَّره المهندسون من أجل الرحلات الطويلة خلال الغلاف الجوي وإلى الفضاء. نظراً للحاجة إلى صواريخ تستطيع أن تصل إلى سرعات أكبر من سرعات الصواريخ ذات المرحلة الواحدة. ويصل الصاروخ متعدد المراحل إلى سرعات أعلى نتيجة نقصان وزنه بإسقاط مراحل (أجزاء) تم استعمال وقودها. وتبلغ سرعة الصاروخ ذي الثلاث مراحل ثلاثة أضعاف سرعة الصاروخ ذي المرحلة الواحدة تقريبًا.

عسكـــــــــري المـــــرور

إعادة تعريف الفعل

نظرتُ إليه... تساءلت... لماذا يقف في مكانه؟!! لِـم لا يركـب سـيارة وينطلـق؟؟!! لِـم يكتفـي بالإشارة؟؟!! متى يتحرك؟؟!!

ثم أعدت التفكير.. ربما ليس مطلوباً من عسكري المرور الذي ينظم الحركة ويرشد التـائهين أن يترك مكانه.

إن العقل يميز بوضوح بين عسكري المرور والسائق، بين الإشارة التي تنظم الحركة، وبين السيارة التي تتحرك، إننا نميز بدقة بين واجبات كل منهما، فلا نطالب عسكري المـرور الـذي يسـتخدم ذراعـه وصافرته بأن يقود مثلنا، لم نسمع أحداً يصرخ فيه: **"متى تترك التوجيه وتنزل إلى القيادة بنفسـك؟؟!!، فلو نزلتَ إلى ساحة القيادة لاكتشفت أن العملية ليسـت يسـيرة، ولتوقفـت عـن رصـد المخالفـات والأخطاء"**، لم نسمع أحداً يعاتبه ويقول: **"حتى متى تكتفي بالإشارة وتحجم عن القيادة والفعل؟؟"**. لَم نر شخصاً يسأله عن عنوان، ثم يستاء منه لأنه لن يرافقه في مسيره، بل يُهديه كلمة الشـكر لأنـه دلـه على الطريق. فما يقوم به لون مهم من ألوان الفعل، لولاه لاضطرب المرور، ولحار الناس في أي السبل يسلكون.

ولا يتساءل العقل كذلك عن مدى إجادة العسكري أو عجزه عن قيـادة السـيارات، لأن مهمتـه تعتمد على مدى معرفته بالطريق، وقدرته على التوجيه، ولا ترتبط بمدى كفاءتـه في الجانـب التنفيـذي (التحرك بالسيارة)، **فالتنفيذ دور، والتوجيه دور آخر.**

على العقل أن يستوعب أهمية فكرة البحث والتنظير بمثل هذا الوضـوح في اسـتيعابه وقبولـه فكرة اكتفاء عسكري المـرور بـدور التوجيـه، وكمـا أنـه يُقَـدِّر دور العسـكري في تسـجيل الغرامـات للمخالفين، فعليه أن يتفهم ضرورة تفرغ مؤسسات لرصد وتحليل النجاحات والإخفاقات. إن استيعاب العقل وتفهمه العلاقة بين التنظير والتنفيذ أساس لتقوية المجتمعات وتقدمها.

ففي المجتمعات القوية يُقَدَّر الجهد الذي تقوم به مراكز الدراسات وأهل الفكر والنظر، فيُهنَئون ويُقَدَّرون، وتقام لهم المحافل لتشجيعهم على الرصد والبحث، وتُدفع لهم الأموال من أجل تطـوير هـذه الصناعة العملاقة. فلا يدعوهم عاقل لترك هذا الدور والانتقال إلى التطبيـق، لأنهـم ليسـوا مطـالبين بالضرورة بالنزول إلى ساحة الفعل بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، من إنشاء حـزب أو جمعيـة الخ. فمـا يقومون به يُعد من أساسيات أي فعل، فعلى ضوء نظرياتهم تولد الحركة، ومن وحي أفكارهم يسـتلهم المبدعون التنفيذيون مسارات للحراك، ومن محاولات التنفيذيين التطبيقية تسمو النظريات، ومن تراكم رصد النجاحات والإخفاقات تتطور الأفكار.

لذلك نرى تنافس المؤسسات الفكرية في الخدمة الراقية، والجودة العالية، والعلمية المنضـبطة في تقديم الرأي لكل صاحب مشروع أو حراك تنفيذي. فتنمو في المجتمعات عقول، ترشد الحائرين، وتقدم البدائل، وتعزز الوعي بمعنى كلمة الفعل، الذي يبدأ بنظرية يرتكز عليها تطبيق.

نسمع أحياناً مقولات مفادها أن التنظير وحده لا يكفي، وهـي وإن صـحت في كـون المجتمعـات تحتاج التنظير والتنفيذ معاً حتى تتقدم؛ فإنهـا مخطئـة إذا تصـورت ضـرورة أن يمـارس الفعلـيْن نفـس الشخص أو الجهة. فتوجيه السؤال إلى المفكـر الاسـتراتيجي والمؤسسـة الفكريـة: **"إلى متـى تظـل في**

التنظير"؛ أشبه بعتاب عسكري المـرور.. **"إلى متـى تكتفـي بإرشـادي للطريـق، متـى تسـتأجر سـيارة لتوصلني"!!**

إننا نعيد تعريف الفعل، فالتنظير فعل، كما أن التطبيق فعل، ولكل من هذيْن الفعليْن أدواته ورجالاته واحتياجاته، فبدون نظرية عمل يختل التنفيذ، وبدون النظر يصعب تحديد ورؤية المسار.

إن مجتمعاتنا مليئة بالطاقات الخلاقة، ومفعمة بالهمم الوثابة، وحين تلتقط الإشارة، وتتمكن مـن رؤية الاتجاه، ويضاء اللون الأخضر، سنرى أروع مشهد، لـون الإشـارة الخضـراء، يمتـزج بلـون الخضـرة والنماء الذي يرسمه موكب صناع التحـول، تتقدمـه المؤسسـات ومجموعـات العمـل المتألقـة، وسـيظل عسكري المرور يرقب الموكب، مكتفياً بالإشارة، لن يترك مكانه، **ولن يُفـتَن بسـحر المشـهد**، سيسـجل التجربة في دفتره، ويحكي الحكاية لتستفيد منها الأجيال القادمة، وسيبدع في تدريب الآخرين علـى فـن التوجيه، ومعرفة أسماء الشوارع، ليرشد الحيارى في الأزمان التي يعاني فيها الناس أزمة الطرق المسدودة.

انتبه إنه فوق عينيك

تعرف على أدواتك

أجهدني البحث... وأعياني التفكير... ما الذي أسكُبه في شلال ثورة الأفكار؟!.. أحضرت كوباً من الشاي لعله يلهمني الفكرة، قررت ألا أكتب، وضعت أصابع كفي على شعر رأسي، ثم انداحت معي على جبهتي في طريقها إلى أن تغطي فمي.. شيء ما جعلها تتسمر فجأة في مكانها، وأشعل نور الفكرة في عقلي، إنه حاجبي، ذلك الخط الحدودي من الشعر، الذي رُسم في صحراء وجهي من جبهتي وحتى فمي، ليفصل بين عقلي وعيني.

نظرتُ في المرآة... تساءلتُ ... ما قيمته؟!! ولماذا يتربع فوق عرش العين؟؟!! تملكني الفضول، لم أعتد أن أجهل نفسي إلى هذا الحد، إنه يلازمني منذ مولدي، لكنني لم أفهم وظيفته، أو حتى أحاول البحث عنها. أخذتُ أبحث عني في الموسوعات الطبية، **محاولاً إدراك ذاتي واكتشاف أدواتي.**

علمتُ أن الحاجب وضع فوق العين ليمنع اضطراب الرؤية، إن وظيفته هي إعادة اتجاه المواد السائلة من العرق أو مياه الأمطار بعيداً عن العين، فمن الممكن أن يغير الماء داخل العين الخواص الإنكسارية لها مما يجعل الرؤية مشوشة غير واضحة.

أطللت من النافذة لأتنفس الهواء الطلق... الأمطار متدفقة.. السيارات تمر ذهاباً وإياباً... تسمرتُ مرة أخرى، فقد أخذت مَسَّاحات السيارات نفس شكل الحاجب، واقتدت بلونه، واستعارت وظيفته لتطيح بمياه الأمطار المعيقة للرؤية، وتراقصت في نشوة يميناً ويساراً، ولِم لا وهي التي تحول دون حدوث الكوارث المرورية!!

وجدت الحاجب يسوس الحياة، أليس عجيباً أن يخطط مايسترو الأوركسترا نفس النهج، فيستخدم حاجباً خشبياً يبين به للعازفين الطريق، ويعطي الإشارة للآلة الساحرة التي ستبدأ عزفها؟!

إننا نحتاج في كل بيت ومؤسسة ومجتمع إلى حاجب، ليساعد على وضوح الرؤية، واكتشاف الطريق. قالوا قديماً: "العين ماتعلاش على الحاجب"، وهو مثل صحيح، سيثمر طاقات عظيمة يوم يطبق في أرض الواقع، لنرى الرؤى والمسارات تُقَوَّم، ونلمس رعاية لأهل الفكر والنظر الذين يمثلون حاجب المجتمع، وصمام الأمان الذي **يضمن قوة الإبصار**.

تستطيع أن ترى رجلاً لا يكسو الشعر رأسه، لكنك لا تطيق رؤية إنسان بدون حاجب، إنه تشويه فظيع للخلقة، كذلك **يحدث تشوه الفعل في الواقع إذا غابت الرؤية أو تشوشت**.

وجدتُّني أسير الإعجاب بحاجبي وملهمي، ورأيتُ للناس فيه مآرب أخرى، فبين مستخدم له في إظهار غضبه فيُميل حاجبيْه لأسفل ليتصافحا ببرود، إلى آخر يُعَلم حاجبيه الرقص ليغازل بهما صعوداً وهبوطاً، وثالث يرفع أحدهما ويبقي الآخر مستقراً معبراً عن الدهاء والحنكة والإصرار. إن الحاجب يعمل هنا ككشاف للانفعالات، وكوسيلة تفاهم صامتة، إنه أحد الأدوات اليومية التي لا يستغني أحد عنها.

والمجتمعات التي تحررت وقويت، لم يكن إبداعها في قدرتها على اختراع أدوات جديدة تمكنها من التحول، لكنها **فهمت ذاتها جيداً، وأدركت أن أدواتها بين أيديها**، إنها أفكار طموحة في العقل، وإرادة في القلب.

إن أدوات التحول في المجتمعات ليست بعيدة المنال، بل هي أقرب مما يتخيل الكثيرون، إنها قريبة منهم قرب الحاجب من العين، وقريباً سيشعرون بوجودها، ثم يتحسسونها بأيديهم، ثم يكتشفون كامن طاقاتها.

أهلاً بالمجـــــانين

من الهلوسة ... سيتشكل المستقبل

بدأتْ الأنفاس تتسارع ... عدوتُ مسرعاً... قفزت فوق السور العالي... تنقلت بين السيارات المسرعة بخفة عجيبة، ثم سلمتُ نفسي إلى قسم الشرطة.. لم أتخيل يوماً أن أفعل ذلك... وإلى اليوم لا أدري كيف فعلت!!

سألتُ صديقي بعد أن حكى قصة الهروب من مجموعة من اللصوص، "كيف فعلت ما لم تتوقع أن تفعله؟ القفز من ارتفاعات شاهقة، سرعة العدو، الخ"، فأخبرني أنه قرأ عن إفرازات يفرزها الجسم – عند الإحساس بالخطر، تمنح الإنسان طاقة هائلة عند التعرض للأزمات، قلت له: **"لكنني أعتقد أنك اكتشفت هذه القدرات الخارقة لأنك لم تُعمل عقلك حينها"**. فنظر إلي باندهاش!!

عندما يتعرض الإنسان لموقف مفاجيء قد يجعل حياته على المحك، فإنه يتصرف بشكل عفوي، وأثناء الهرولة ورؤية السور العالي يتوقف العقل عن التفكير في التفاصيل وتحليلات الموقف، ويمتنع عن الحسابات المعقدة قبل أخذ القرار، فيصنع الإنسان ما كان عقله يوهمه أنه مستحيل، ويكتشف بعضاً من قدراته التي ربما اعتبرها خارقة للعادة.

فهل إيقاف العقل عن العمل هو السبيل إلى التطور؟؟

لابد أولاً من تحديد ما نعنيه بالعمل هنا، فالعقل إذا امتلأ جهلاً – كأن يجهل الشخص قدراته، فإنه حين يعمل يبعث برسائل سلبية عند استخدامه في التفكير، مفادها **"لا فائدة من الفعل"**، **"أنت أضعف من أن تقوم بهذا"**، لكنه إن تسلح بالمعرفة، فحينها سيكون عمل العقل

محموداً، إذ سيؤكد لصاحبه إمكانية الفعل. وما حـدث مـع صـديقي هـو توقـف دور العقـل عـن بـث الرسائل السلبية عند الأزمة، وعن ارتكاب جريمة التثبيط، فتجلت القدرات الكامنـة، لـذلك أخبرنـي صديقي: "كنت أتصرف بشكل لا إرادي"، أي لم يُعمل فيه عقله، وعندما ترك نفسـه لاختبـار قـدراتها اكتشف عظمتها وإمكانياتها، ولعله **استاء من عقله الذي طالما أقنعه أنه لا يستطيع**.

إننا نلحظ أن العقل بالرغم من أنه أداة تطورت بها البشـرية، إلا أنـه كـان أحيانـاً أداة تخلفهـا، عندما عشش الجهل فيه، فنسج خيوطاً هشة عن الوعي بالفعل وإمكانيته، وأفرخ فكرة مفادهـا أن **قفـز السور غير ممكن**.

إن صناع التحولات يستعلون فوق نقاط ضعف عقولهم، **فيزودونها بالعلم**، الذي يؤكد إمكانيـة إحداث التحولات، ولا يسمحون لإفرازات الجهل من مسلمات خاطئة أن تتحكم في تصرفاتهم، إنهـم **يحررون عقولهم من أسر عقولهم**، ويدركون أن العقل لغة يعني "القيد"، فيشرعون في فك بعض قيوده بالعلم.

ينعتون القادة العظماء والمخترعين بالجنون، لأنهم يفكرون بطريقة تختلف عمـن حـولهم، لكـنني أرى أحد أسرار تميزهم في أن **عقول الكثير منهم أخلصت في ولائها لهـم**، فلـم تسـمح لخصـومهم أن يبرمجوها، كما أُشربت علماً بالقضية الـتي تبنوهـا، فـآمنوا بقـدراتهم، أمـا الآخـرون الـذين تصـوروا أنفسهم "العقلاء"؛ فجهلهم بإمكانياتهم أقعدهم، وجهلهم بخصومهم أخافهم. وإن كان الجنـون يعـني تحرر العقل من قيوده بالعلم الذي يُترجَم إلى فعل؛ فأهلاً بالمجانين، الذين سيستجيبون للتحديات بفعل يُدهش العالم، فيقفزون الأسوار العالية، ويخترقون زحام التدافع الحضاري بخفة بالغة، سـلاحهم العلـم،

ولغتهم الهلوسة، **فمن هلوساتهم – التي لا يفهمها الناس – سيتشكل المستقبل.**

الخاتمة

كانت هذه محاولة لتلسيط الضوء على بعض المعاني والأفكار المعنية بإحداث ثورة في العقول، وهي معان تحتاج إلى تذكير ثم انتباه ويقظة أثناء الممارسة الحقيقية في ساحة الفعل من أجل تنمية المجتمعات، وهي جديرة بأن تصل إلى كل إنسان يسعى لتغذية عقله بالغذاء النافع، وتطوير أسلوب التفكير، كما تنير ومضات في عقول النشطين والقادة المعنيين بالفعل الاجتماعي والسياسي، حتى يتمكنوا من تأسيس مؤسسات قوية تقوم على قواعد متينة، ويقوم بها مجتمع حر يحترم العقل، ويرعى قدسيته، ويستثمر في تنميته.

إن زلزلة العقول من أولى أولويات صناع التغيير، لأنها تردم الفجوة بين المستحيل والممكن العقلي، وهي زلزلة تناقش في المسلمات، وما يُعتقد أنه من الأفكار الرواسي، وبهذه الزلزلة يعاد تشكيل العقول، ويكون من أهم توابعها إعادة تشكيل الفعل الميداني، لإحداث زلازل التحول على الأرض، وتقديم النقلات الكبرى في التجربة البشرية.

حقوق هذه المادة محفوظة لأكاديمية التغيير. ولا يجوز طباعتها للنشر إلا بعد موافقة أكاديمية التغيير، ولا مانع من نشرها على مواقع الإنترنت شريطة ذكر المصدر.

AOC MindQuake

All rights reserved. It may be reproduced
with permission of the Academy of Change.

The authors have asserted their right under the
Copyright, Design and Patents Act 1988,
to be identified as the Authors of this work.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

British Library Cataloguing in Publication Data.
A Catalogue record for this title is available from
the British Library.

ISBN 1-4276-1312-5

Distributed on line by
www.taghier.org

للتواصل مع أكاديمية التغيير (AOC)

بريد إلكتروني: info@taghier.org

www.aoc.fm